الفصل التاسع

نهاية النفوذ الإسلامي في أوربا الجنوبية

التغير الذى طرأ على أوربا منذ مطالع القرن العاشر الميلادى : انتعاش القوى الروحية — الحركات الدينية الجديدة وأهدافها — الجبهة الاسلامية : الانقسام السياسى والدينى — العصبية وكثرة الفتن ووضوحها فى أسبانيا — ابن الخطيب وابن عذارى يجملان العوامل الكبرى لكثرة الفتن زمن بنى أمية بالاندلس — دخول المغامرين المسيحيين فى المعسكر الاسلامى وخطره — السيد القمبيتور — كيف زالت سيادة المسلمين عن البلاد التى وطئوها فى مياه البحر الابيض وفى بلاد أوربا الجنوبية .

وعلى هذا النحو امتد النفوذ الإسلامى فى أوربا الجنوبية والوسطى ؛ وكانت منطقة أعالى الراين ، عند مشارف سويسرا الشمالية أقصى ما وصل إليه المسلمون فى قلب أوربا ، غير أن حركة المد هذه أعقبتها حركة جزر ولم تكن حركة المد والجزر متكافئة فى جميع الجهات ، فلم تتم فى وقت واحد ، بل على فترات مختلفة وأزمنة متفاوتة ؛ وربما عاد النفوذ الإسلامى إلى حيث كان ، ولكن إلى أمد غير طويل .

فلقد تغيرت أحوال العالم الأوربى منذ مطالع القرن العاشر الميلادى وخلال القرن الحادى عشر ومايليه ؛ ومنشأ هذا التغير هو ذلك الحماس الدينى الذى ميز القرن الحادى عشر فى التاريخ الأوربى العام ، بصفة خاصة ويرجع الفضل فى هذا الحماس ، إلى تلك الحركات الديرية الجديدة المتطورة ، وهدفها تقوية الجانب الروحى من الحياة الإنسانية ، وعلاج الضعف الذى ألم بالمجتمع الإقطاعى الأوربى أنذاك ، تدعيم المعسكر المسيحى ضد أعدائه .

وأهم هذه الحركات : الحركة الكلونية ، نسبة إلى دير قام فى مدينة كلونى Cluny فى برجنديا بفرنسا ؛ بل لقد عمد بعض الكتاب إلى اعتبار عام ٩١١م ، وهو العام الذى أسس فيه هذا الدير (١) ، بداية التحول العام فى

---

(١) أسس دير كلونى ، وليام التقى دوق أكويتانيا عام ٩١٠ أو ٩١١ م .

أوربا . وتبع الحركه الكلونية حركات ديرية لتحقيق نفس الأهداف ، مثل الحركة الكارزثوية Carthusian نسبة إلى مدينة كارثوزيا Cartusia قرب جرنوبل بفرنسا ، وهى المعروفة حاليا باسم شارترو Chartraux (١) ، والحركة السسترشيانية Cistersian ، نسبة إلى مدينة ستيو Citeux فى فرنسا كذلك (٢) ، والحركة البريمونسترانية Premonstatersian ، نسبة إلى مدينة بريمونترية Prémontrie بأبرشية لاؤن Laon بفرنسا (٣) .

وليس من باب الصدفة ، أن خواتيم القرن الحادى عشر الميلادى ، هى بداية الحروب الصليبية المعروفة فى التاريخ ، وإن كانت فكرة الحروب الدينية ليست جديدة على ذلك القرن ، فالعامل الدينى كان بارزا فى جميع الحروب التى خاضها المسلمون ضد العالم المسيحى فى تلك القرون كما أنه ليس من باب الصدفة، أن يوصف القرن الثانى عشر ، فى التاريخ الأوربى بأنه قرن اليقظة والبعث العلمى فى العصور الوسطى ، وكان الأثر الإسلامى أهم عوامله وعناصره .

وبالإضافة إلى عامل الحماس الدينى الذى شمل أوربا ، هناك الملكيات الجديدة النامية ، وهى التى قامت على أنقاض الإمبراطورية الكارولنجية وأخذت تقوى على حساب النظم الإقطاعية القائمة . ففى ألمانيا قامت أسرة

---

(١) مؤسس الحركة الكارثوزية هو برونو الكولونى Bruxno of Colegne عام ١٠٨٤ م ، وكان كاهنا لمدينة رعس Rheims

(٢) مؤسس الحركة السسترشيانية روبرت رئيس دير موليم Molesme عام ١٠٩٨م

(٣) القديس نوربير Norbert هو الذى أسس الحركة البريمونستراتية عام ١١٢٠م

(راجع : Chew & Latham, . pp. 113 - 12o Brooke, pp. 372 - 378)

السكسون Saxons ، ومن بعدها أسرة الساليين Salians خلال الفترة من ٩٣٦ إلى ١٢٢٥ م ؛ ثم أعقبتها أسرتا ألولف Welfs وهوهنشتوفى Hohenstaufen (١١٢٥ — ١٢١٨ م)(١)وفى فرنسا قامت أسرة هيوكابيه منذ عام ٩٨٧ م (٢) ؛ وظهر فى جنوب إيطاليا النورمان Normans بجيوشهم الجرارة الفتية ، وحماستهم لعقيدتهم المسيحية الجديدة ، وهؤلاء هم المجوس ، كما سماهم المسلمون منذ القرن التاسع الميلادى (٣) ، لكنهم تحولوا من النهب والغزو ، إلى الاستقرار وتأسيس ملك ، ونجحوا فى ذلك خلال القرن الحادى عشر (٤) .

كذلك جاءت شدة وطأة الضغط المسيحى على مسلمى أسبانيا ، من من العوامل الكبرى التى ساهمت فى إزالة النفوذ العربى الإسلامى من أوربا ، وكانت هذه الشدة دليلا على التغير العام الذى شمل أوربا كما كانت من آثاره . واقترنت حركة الاسترداد المسيحى بالعامل الدينى (٥) ؛ كما ساهمت عوامل أخرى جغرافية وقومية .

* * *

---

(١) راجع Bryce, op. cit., PP. 19 sqq., 119 - 131 chew & Latham, PP., 146 sqq., 156 sqq,C. Med. H. Vol. III, PP. 179 — 203

(٢) راجع ما سبق

(٣) انظر : ابن عذارى : البيان جـ ٢ ص ١٣٠ — ١٣٢ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٠

(٤) انظر : Brooke, op. cit., PP., 222 — 4; Scott, op. cit., Vol. II, PP. 52 - 66; C. Med. H., Vol. V. pp. 169 - 77; Hestorians Histary, vol IX. PP. 68 — 71

(٥) انظر : ليفى بروفنسال : الإسلام فى المغرب والأندلس — ترجمة سالم — ص ١٧٠ — ١٧٢

أما الجبهة الإسلامية المقابلة للعالم الأوربى المعاصر وقتذاك ، فقد وضحت فيها عناصر الضعف والتفكك ؛ وأول هـذه العناصر : وجود ثلاث خلافات إسلامية ، تقتسم العالم الإسلامى ، ويعادى بعضها بعضاً ، وهى : الخلافة العباسية فى بغداد وخلافة بنى أمية بالأندلس وخلافة الفاطميين فى المغرب ثم فى مصر وماحولها . وفضلا عن هذا الانقسام السياسى . هناك انقسام دينى بين السنة والشيعة ، مما أدى إلى تمزيق وحدة العالم الإسلامى ، وإضعاف جبهته أمام العالم الأوربى المسيحى الذى أخذ يوحد هدفه ويجمع صفوفه ، ولم يكتف بإزالة النفوذ الإسلامى من أوربا ، بل أوغل فى قلب العالم الإسلامى ، بالشرق الأوسط ، فعانت الدويلات الصليبية التى أقامها بالشام منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى .

هذا من ناحية الشكل العام لإطار العالم الإسلامى ؛ أما الناحية الداخلية فلم تكن خيرا من صفة هذا الشكل ، وهذه هى العنصر الثانى من عناصر الضعف والتفكك والفرقة ، وأبرز جوانبها انتقال العصبية مع الفاتحين المسلمين إلى أوربا ، وأخطرها ماوقع بين عرب الحجاز وعرب الشام ، ثم الصراع الرهيب بين العرب والبربر . وضح هذا فى أسبانيا الإسلامية ، وهى المركز الرسمى الذى غذ الفتوح فى فرنسا وما والاها . حتى أن الإمبراطور أوتو لم يجد أمامه غير عبد الرحمن الناصر الأموى فى قرطبة (ت ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م) ليبعث إليه برسالة فى عام ٩٥٦ م ، طالبا منه أن يكف المسلمون عن غاراتهم بجنوبى فرنسا (١) ، ولاشك أن ضعف

---

(١) غزوات العرب ص ٢٣ ، ١٧٧ — ١٨٢

السلطة المركزية الرسمية يضعف من قبضة ممثليها على فتوحهم بالأطراف والجهات النائية .

وقد لاحظ شارل مارتل حقيقة العصبية وخطرها ، فى مطلع الفتوح الإسلامية فى فرنسا ، فكان مما قاله لقومه ، حين أبدوا له دهشتهم من سرعة الفتوح الإسلامية وانتصارات المسلمين المتلاحقة ، وتقاعد المعسكر المسيحى :

« الرأى عندى ألا تعترضوهم فى خرجتهم هذه ، ولكن أمهلوهم حتى تمتلىء أيديهم من الغنائم ، ويتخذوا المساكن ، ويتنافسوا فى الرياسة ، ويستعين بعضهم ببعض ، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر . » ؛ وعلق المقرى : « فكان والله كذلك ، بالفتنة التى طرأت بين الشاميين والبلديين والبربر والعرب ، والمضرية واليمنية ، وصار بعض المسلمين ، يستعين على بعض بمن يجاورهم من الأعداء » (١) .

والواقع أن العرب استحوذوا لأنفسهم على الجانب الأكبر من الأراضى والغنائم ، مما أثار حفيظة البربر ، واعتقد العرب أنهم أصحاب البلاد وأصحاب السيادة الفعلية بالأندلس ، ونظرا لأنهم كانوا أقلية بالنسبة للبربر ، فقد اتخذوا موقف الحيطة والحذر دائماً من البربر (٢) ، واشتدت الكراهية بين الفريقين ، وبلغت حداً صارت عنده مثار التهكم والسخرية ، مع شىء من

---

(١) نفح الطيب حـ ١ ص ١٢٨ — ١٢٩ ؛ انظر كذلك Lévi — Provincal, op. Cit., PP. 18 — 22 ; راجع ماسبق

(٢) العبادى ص ١١١ — ١١٢ ، ١٢٠ — ١٢١ ؛ ابن حوقل ص ٩٧ — ١٠٣

الطرافه ؛ فمما يستملح من النوادر المقولة فى نسب البربر ، قول خلف بن فرج ، من شعراء الأندلس ، يهجوا البربر :

رأيت آدم فى نومى فقلت له ∴ أبا البرية إن الناس قد حكموا
أن البرابر نسل منك ، قال إذن ∴ حواء طالق إن كان الذى زعموا (١)

ولذلك طفحت أسبانيا الإسلامية بالفتن والثورات التى كثرت منذ مطالع القرن العاشر الميلادى ؛ وأجمل ابن الخطيب العوامل المختلفة التى أدت إلى كثرة الثورات والفتن زمن بنى أمية فى الأندلس ، فى ثلاثة :

« أولها : منعة البلاد وحصانة المعاقل وبأس أهلها بمقاربتهم عدو الدين ، فهم شوكة وحد بخلاف سواهم .

« الثانى : علو الهمم وشموخ الأنوف وقلة الاحتمال لثقل الطاعة ، إذ كان من يحصل بالأندلس من العرب والبرابرة أشرافا يأنف بعضهم من الأذعان لبعض .

« الثالث . الاستناد ، عند الضيقة والاضطرار ، إلى الجبل الأشم والمعقل الأعظم من ملك النصارى الحريص على ضرب المسلمين بعضهم ببعض (٢) » .

واشتهر عهد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ / ٨٨٨

---

(١) الاستقصا ٥٦

(٢) أعمال الأعلام ص ٣٥ - ٣٦

٩١٢ م) ، بكثرة الثورات ، وقد عد ابن عذارى منها نحو ٢٦ ثورة ، وقعت كلها فى عهد هذا الأمير ، وحاول كل ثائر أن يستقل بمدينة أو منطقة ، مثل ثورة ديسم بن إسحاق ، الذى تغلب على مدينتى لورقة ومرسية ، وثورة عبد الرحمن بن مروان المعروف بالجليقى ، فقد استولى على بطليوس وماردة ، يقول صاحب البيان « وجاور أهل الشرك ووالاهم على أهل القبلة(١) » ؛ وهناك ثورات البربر الذين أنشأوا لهم مستعمرات بربرية فى المناطق الجبلية(٢) .

وقد صور ابن الخطيب عن الأمير عبد الله ، بقوله : « وتصيرت إليه الخلافة ، وقد تحيف النكث أطرافها ، واقتسمها الثوار ، وكلب عليها الأشرار ، ولم يبق منها إلا الاسم ، فوق ظهر منبر قرطبة ، والقليل من غيرها ، وساءت الظنون ، ولم يدر عبد الله إلى أين يصرف وجهه : إلى ابن حفصون كبير الثوار المجاور لقرطبة ، وقد استولى على معظم البلاد مثل إلبيرة وريه وما إلى ذلك ، أم لابن حجاج ، وقد استقل بأشبيلية وقرمونة وما إلى ذلك ، أم لعبد الرحمن بن مروان الجليقى ببطليوس أم لعبد الملك بن أبى الجواد بباجة الغرب ، أم لابن السليم بشذونة ، أم لابن إلياس بالقلعة المنسوبة إليه إلخ ... »(٣)

وكذلك صور ابن عذارى هذا العهد بقوله : « وأفضت إليه الخلافة ،

---

(١) ابن عذارى حـ ٢ ص ٢٠٥

(٢) Lévi — Provincal, PP. 10 — 11 . 24 — 26 مفاخر البربر ص ٧٨

(٣) أعمال الأعلام ص ٢٧ — ٢٨

وقد تحيفها النكث ومزقها الشقاق وحل عراها النفاق والفتنة مستولية ، والدجنة متكاثفة ، والقلوب مختلفة ، وعصا الجماعة متصدعة ، والباطل قد أعلن ، والشر قد أشهر ، وقد تمالأ على أهل الإيمان حزب الشيطان ، وتألب على أهل الإسلام أهل الشرك ومن ضاهاهم من أهل الفتنة الذين جردوا سيوفهم على أهل الإسلام ، فصار أهل الإسلام بين قتيل ومحروب ومحصور يعيش مجهودا ويموت هزلا ... وانقطع الجهاد إلى دار الحرب ، وصارت بلاد الإسلام بالأندلس هى الثغر المخوف ، فكان قتال المنافقين وأشباههم أوكد بالسنة وألزم بالضرورة »(١) .

أدت هذه الأحداث إلى انتهاز الأفرنج والأسبان الفرصة للتنكيل بالمسلمين والعمل على طردهم (٢) .

وبلغ الانقسام والضعف والتمزق أقصاه ، زمن ملوك الطوائف ، وهو الزمن الذى استمر نحو قرنين وسبع سنوات ؛ فكون الزعماء العرب إحدى عشرة دويلة منها : بنو عباد بأشبيلية وبنو حبور بقرطبة وبنو هود فى سرقسطة ، وبنو حمادح من تجيب فى المرية إلخ ... ، وكون البربر عشر دويلات منها : بنو حمود فى مالقة والجزيرة وبنو زيرى فى غرناطة وبنو الأفطس فى بطليوس وبنو ذى النون فى طليطلة وهكذا . . . كذلك كان للصقالبة خمس دويلات فى هذا العهد الفوضوى ، منها مجاهد العامرى

---

(١) البيان ج ٢ ص ١٨٣ ـ ١٨٤

(٢) ابن عذارى حـ ٢ ص ٢٢١ ، ٣٧٧ ـ ٤٤٥ ، نفح الطيب حـ ١ ص ١٨٥ — ١٨٩ ؛ غزوات العرب ص ٨٣

وابنه فى دانيه ، وزهير فى المرية ومرسية ، ومبارك ومظفر فى بلنسية ، ونبيل فى طرطوشة وهكذا(١)

ويضاف إلى هذه العوامل الكبرى فى ضعف الجانب الإسلامى فى أوربا ، استعانة المسلمين بالمغامرين من أعداء الدين فى حروبهم وجهادهم ، وهؤلاء مهما أدوا من خدمات للمعسكر الإسلامى ، فإن ولاءهم غير باق، بل هو مرتبط بقدر ما يتقاضونه من أجور ، وكيف يطمئن قوم لولاء من خرج على قومه ودينه وتنكر لوطنه وقبيلته ! إن الخروج على الخلفاء الجدد أسهل عليهم من الخروج على مواطنيهم ، ومن فرط فى قومه أولى بالتفريط فى أعداء قومه . ولعل أبرز مثال يصور هذه الحالة هو استخدام المسلمين فى الأندلس لمغامر أسبانى مسيحى لا مبدأ له ولا عهد ، هو رودريجو دياز Rodrigo Diaz الذى اشتهر باسم « السيد القمبيطور » Cid Campeador ، ومعنى هذا اللقب « قائد الغارات فى السهول » ، ويعبر العرب فى العصور الوسطى عن صاحب هذا اللقب باسم « صاحب الفحص » ، وهو يقابل اللفظ اللاتينى Compidictus ، ولعله أطلق منذ ذلك الحين على الخبير بالغزوات فى أرض الأعداء ؛ وورد فى المراجع العربية باسم الكنبطور أو الكبيطور(٢) .

---

(١) لعهد الطوائف فى أسبانيا الإسلامية انظر : صبح الأعشى حـ ٥ ص ٢٤٨ — ٢٦٠ ؛ أعمال الأعلام ص ١٤٤ ومايليها ؛ (الإحاطة فى أخبار غرناطة حـ ١ و حـ ٢) ؛ نفح الطيب حـ ١ ص ٢٠٤ ، العبادى ص ١٥٥ — ١٧١ ، (محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس) كلياليا ص ٥١ — ٥٥ ، زامباور حـ ٢ ص ٨٦ — ٩٥ ، ليفى بروفنسال : الإسلام فى المغرب والأندلس (ترجمة سالم وزميله) ص ١١٩ وما بعدها ، وكذلك لنفس المؤلف : (Histoire de l'Espagne Musulmane. T. III) ; L'Espagne Musulmane. PP. 24 — 26 ; Dozy. T. II. PP. 175 — 189.

(٢) ابن عذارى حـ ٢ ص ٢١٥ ؛ ابن الخطيب ص ٢٠٣ — ٢٠٥

اختلطت سيرة هذا المغامر بالأساطير ، ولد حوالى عام ١٠٤٥ م فى مدينة برغش Burgos فى جليقية (غاليبا) ، وتوفى والده حوالى عام ١٠٥٨ م ودخل رودريجو فى خدمة ملك قشتالة سانشو بن فرديناند الأول ، وصار حامل لوائه وقائد جيوشه ، وواتته الفرصة لإظهار مواهبه ، إذ صارع فارسا من أبناء نافارة فصرعه ، ولعل ذلك هو الذى خوله لقب القمبيطور ؛ وسفر فى عام ١٠٧٩ م بين ملك قشتالة وبين المعتمد بن عباد ملك أشبيلية الذى كان يدفع جزية لألفونسو السادس ملك قشتالة ، وعاد بالجزية من صاحب أشبيلية عام ١٠٨٠ م ؛ وخلال هذه السفارة ، اشتراك فى معركة فى جانب مملكة أشبيلية ، لأنها مشمولة بحماية مملكة قشتالة ، وذلك ضد جيش غرناطة ، وكان من بين جنود غرناطة قشتاليون ، فانتصر رودريجو وأسر كثيرا من نبلاء النصارى الذين يحاربون فى صفوف مملكة غرناطة . غير أن ألفونسو السادس نفى رودريجو فى عام ١٠٨١ م ، لأنه كان يقوم بأعمال ومغامرات دون إذنه .

وكان نفيه نقطة تحول فى حياة البطل القشتالى ، وهذا هو الدور الذى امتلأ بالأساطير ، فخرج على رأس ثلثمائة فارس من المغامرين أمثاله ، وتوجه يعرض خدماته على من يضمه إليه ، أيا كانت جنسيته أو عقيدته ، فذهب إلى برشلونة وعرض خدماته على أميرها وهو كونت رامون بيرنجر ، فلم يرحب به ، ثم توجه إلى أحمد المقتدر من بنى هود ملوك سرقسطة المسلمين ، فرحب به ، ومن ثم بدأ رودريجو يحارب فى صفوفه ضد الأراغونيين والفظلانيين ، وانتصر لحساب الملك المسلم ، فأغدق عليه ملك سرقسطة الهدايا والعطايا ، وكان ملك سرقسطة فى ذلك الوقت المؤتمن ابن أحمد المقتدر ، وربما كان المؤتمن هذا هو الذى أطلق عليه لقب

« سيدى » ، وهو صورة أندلسية للفظ « سيد » ، وانتقل هذا اللفظ إلى الأسبانية فصار Mio Cid ، واشتهر به رودريجو حتى صار علما عليه .

حاول ألفونسو السادس ملك قشتالة أن يسترده ، وظل السيد يحارب فى صفوف المسلمين، وظل فى سرقسطة حوالى عام ١٠٨٦ م . وكان ألفونسو السادس ملك قشتالة قد اشتهر بحروبه ضد المسلمين ، ولا سيما بعد انتزاع طليطلة عام ١٠٨٥ م من أمرائها المسلمين ، وهم ذو النون البربر من ملوك الطوائف ؛ وفى تلك الأثناء كان السيد يعمل مع ملك سرقسطة أحمد المستعين بن المؤتمن ، وحاول ضم بلنسية إلى صاحب سرقسطة الذى يخدم هذه ونجح فى انتزاعها ، وكانت بلنسية فى ذلك الوقت مشمولة بحماية ملك قشتالة ، وملكها القادر ؛ غير أن السيد أخذ يفكر فى الأمر ، وحدثته نفسه بترك الجانب الإسلامى والعودة إلى ملك قشتالة ، الذى لقى هزيمة منكرة على يد المرابطين فى ١٣ أكتوبر ١٠٨٦ م فى وقعة الزلاقة المشهورة وتم الصلح بين ألفونسو السادس والسيد فى ربيع ١٠٨٧ م ، ولكن السيد كان يضع مصالحه الشخصية فوق كل اعتبار ، فأخذ يعمل لحسابه . فكثرت مغامراته فى المنطقة الشرقية ، من الأندلس من أريولة إلى شاطبة ، وأجبر كونت برشلونة المسيحى على دفع جزية له ، وطلب أمير طرطوشة المسلم حماية السيد ودفع له جزية ، وسرعان ما دفع له الجزية جميع صغار أمراء المسلمين بشرق الأندلس ، ليضمنوا عدم اعتدائه ، وهم أمراء البونت ومريط وشبرب وشارقة والمنارة ، فزادت ثروته واتسع نفوذه .

اشتد النفور بين السيد وبين ألفونسو السادس، وصمم ملك قشتالة على انتزاع بلنسية من السيد ، واستعان بجنود من جنوة وبيزه ، وحاصر بلنسية براً وبحراً ، وكان السيد فى ذلك الوقت يحارب بجانب ملك سرقسطة

ضد أرغونة ، فأخذ يخرب فى بلاد قشتالة ، وحينئذ اضطر ألفونسو السادس لرفع الحصار عن بلنسية .

وكان السيد هو الذى يحكم بلنسية ، ونائبه فيها ابن الفرج غير أن أهل بلنسية أعدموا نائب السيد لأنه أرهقهم بالمال ، فاستقل بالمدينة كبار المواطنين بها وعلى رأسهم جعفر بن جحاف قاضى المدينة ، وطلب هذا القاضى من المرابطين حمايته من السيد ، ولكن السيد زحف على بلنسية فى عام ١٠٩٣ م واستولى عليها ، وقاست المدينة الكثير من الجوع والوباء ؛ وعامل السيد أهل المدينة بعد ذلك بالتسامح وخطب فيهم خطبة وضح سياسته وموقفه ، غير أنه لم يغفر لهم قتلهم القادر المشمول برعاية ألفونسو السادس ، وعاقب القاضى بالإعدام حرقا ، كما أعدم كثيراً من أهل المدينة .

أضحى السيد سيد بلنسية المطاق ، ووسع رقعة ممتلكاته ، وحول مسجدها الجامع إلى كنيسة ؛ ومات فى يوليه ١٠٩٩ م وهو العام الذى سقط فيه القدس وحارب المرابطون زوجته التى استنجدت بابن عمها ألفونسو السادس ، ولكن المرابطين استولوا على بلنسية عام ١١٠٢ م(١)

ومن مقالة ابن الخطيب وابن عذارى ، ومن مغامرات السيد ، تتضح حقيقة كبرى ، كانت من أكبر عوامل الهدم والتمزيق للقوة الإسلامية فى أسبانيا ، فضلا عن التمزق والفرقة ، تلك هى خطورة استعانة أمراء

---

(١) انظر : ليفى بروفنسال (المترجم) ص ١٧٤ ـ ٢٣١ ، البيان حـ ٢ ص ٢١٥ ، ابن الخطيب ص ٢٠٣ ـ ٢١٥ ؛ Brooké. PP. 221 — 2 ; Lace — Poole P. 177 ; كليليا ص ٦٨ ، الروض المعطار ص ٤٧ ـ ٥٥ ، مؤنس : ; C. Med. H., IV, P. 400 السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين (المجلة التاريخية مايو ١٩٥ م ٣ عدد ١ (ص ٣٧ — ٨٧)

المسلمين بمن يجاورهم من الأعداء ، ضد بعضهم البعض ، وخضوع الكثير منهم لحماية ملك قشتالة ودفع جزية له ؛ ومن هؤلاء بنوزيرى فى غرناطة وبنو عباد فى أشبلية وطليطلة وبنوهود فى سرقسطة .

وإذا أضفنا إلى ذلك كله ، إلحاح المسلمين فى الحصول على الغنائم ، وحرصهم عليها ، مما كان من أسباب هزيمتهم فى فجر عهدهم بأوربا — فى بلاط الشهداء — ، تكون عوامل الوهن ، قد استشرت فيهم ، وتكون شمس الإمبراطورية التى أقاموها فى أوربا ، قد آذنت بالغروب .

* * *

ونتناول فى إيجاز ، كيف زالت السيادة الإسلامية عن البلاد التى فتحوها فى أوروبا الجنوبية وفى مياه البحر الأبيض .

فأما جزيرتا قبرص ورودس ، فإن السيادة عليها تأرجحت بين المسلمين والبيزنطيين والصليبيين ، حتى قضى العثمانيون على الإمبراطورية البيزنطية عام ١٤٥٣ م ، ومن بعدها قضوا على إمبراطورية المماليك (١٥١٧ م) ، وكانت قبرص تابعة للمماليك منذ القرن الخامس عشر ، وانتهت السيادة عليها إلى العثمانيين ، كما آلت رودس إلى العثمانيين عام ١٥٢٢ م . يوم انتزعوها من فرسان الاسبتارية الصليبيين (١) .

وأما جزر بحر إيجة الصغيرة . فإن السيادة الإسلامية لم تثبت فيها طويلا . ولا سيما بعد سقوط جزيرة كريت . فى أيدى البيزنطيين . ظلت الإمبراطورية البيزنطية تكافح فى سبيل استعادة كريت . حتى نجحت فى عام ٣٤٩ هـ/٩٦١ م . بقيادة نقفور فوقاس . زمن الإمبراطور رومانوس الثانى . وأسر البيزنطيون آخر أمراء كريت المسلمين . وهو

---

(١) راجع ما سبق وانظر : زيادة ص ٢٠٠ — ٢٠٣ ، الجراكسة ص ١٠٥ — ١١٤
Wiet. PP. 261 — 2 ; Lane — Poole. P. 329

عبد العزيز بن حبيب بن عمر ؛ ويقال إنه التحق بخدمة الإمبراطور البيزنطى ومن ثم عادت سيطرة بيزنطة على حوض البحر الأبيض الشرقى (١) . وهجر المسلمون الجزيرة بعد أن احتفظوا بسيادتهم عليها نحو قرن ونصف وعندما استولت الحملة الصليبية الرابعة على بيزنطة عام ١٢٠٤م ، صارت جزيرة كريت من نصيب بونيفاس مونتفرات ، ولكنه باع الجزيرة للبنادقة فى نفس العام ، فظلت كريت تابعة لجمهورية البندقية حتى فتحها العثمانيون عام ١٦٦٩ م (٢) .

وجاءت نهاية السيادة الإسلامية على جزيرة صقلية ، على يد النورمان أواخر القرن الحادى عشر الميلادى (٣) . والملاحظ أن طبيعة الفتح النورمانى لصقلية ، تختلف عن انتصارات المسيحيين على المسلمين فى أسبانيا ، فإن حركة الأسبان المسيحيين ، كانت عملية استرداد مسيحى لبلادهم ، أما الفتح النورمانى لصقلية ، فهو أمر جديد ، للاستقرار وتكوين دولة جديدة . والنورمان أنفسهم غزاة جدد ، طرأوا على أوربا منذ القرن التاسع الميلادى (٤) .

---

(١) Vassiliet. P. 311

(٢) نفح الطيب حـ ١ ص ١٥٩ ، أسد رستم حـ ٢ ص ٣٤ — ٣٥ ، المعجب ص ١٠ ، أومان ص ١٧٩ — ١٨٠ ، مؤنس ص ١٣٨ ، شارل ديل : البندقية ص ٢١ ، إبراهيم العدوى : اقريطش بين المسلمين والبيزنطيين فى القرن التاسع (المجلة التاريخية مايو ١٩٥٠ — ص ٥٣ — ٦٨ ، C. Med. H. Vol. ; Scott. II, p. 76 ; IV, PP. 141 — 42.

(٣) انظر فشر ص ١١٣ ومايليها ، Histarians History Vol. IX. pp. 63 — 70

(٤) Brooke. P 222

تزعمت أسرة هو تفيل De Hauteville النورمانية حركات الفتح النورمانى ، فى جنوبى إيطاليا وصقلية . وشجعها الصراع والتنافس والانقسام بين مسلمى صقلية (١) ، وقد تظاهر النورمان فى أول أمرهم بأنهم يعملون على استعادة البلاد البابوية ، لكنهم كانوا فى حقيقة أمرهم يؤسسون لأنفسهم . فاشترك روبرت جويسكارد R. Guiscard النورمانى مع أخيه الأصغر روجر Roger فى عمليات الفتح ، ووعد روبرت أخاه ، بنصيب فى فتوحه المقبلة فى قلورية (كالابريا) وصقلية ؛ ونجح الأخوان عام ١٠١٠ م حتى وصلا إلى مدينة ريو Reggio (٢).

والواقع أن النورمان كانوا يتطلعون إلى جزيرة صقلية لخصبها وثروتها وقد أغراهم ضعف المسلمين فى صقلية ، إذ إن حكام الجزيرة المسلمين ، كانوا فى صراع وتنافس ، بعد أن تخلصوا من نفوذ الدولة الزيرية فى شمال أفريقية (٣) ، ومن هؤلاء المتنافسين شخص يعرف باسم « محمد بن الثمنة ولقبه القادر بالله ، يقال إنه استعان بالنورمان فى صراعه الداخلى كما استعان بالزيريين من قبل مما سهل للنورمان مهمة فتح صقلية ، وليس هذا الأمر غريبا ، فهناك ملوك الطوائف فى أسبانيا الإسلامية ، كثيراً ما استعانوا بملوك قشتالة المسيحيين فى صراعهم ومنافساتهم .

ورغم أن محاولة عبور مضيق مسينا ، مخاطرة كبرى لوجود

---

(١) Scott. II PP. 52 — 54

(٢) Historians Hist ory. , C. Med. H., Vol V, PP. 169 — 71 Vol. IX, PP. 68 — 71

(٣) انظر زمباور حـ ٢ ص ١٠٩

الأسطول الإسلامى ، إلا أن النورمان نجحوا فى عام ١٠٦١ م فى الاستيلاء على مسينا ثم تروينا Troina ، وهذا ماثبت أقدامهم للعمليات الحربية المقبلة ، ونظرا لانشغال النورمان فى مشروعات مماثلة فى إيطاليا الجنوبية ، فإن تقدم النورمان فى صقلية كان بطيئاً ؛ واستمر لبضع سنوات . اضطر روبرت جويسكارد لمغادرة صقلية إلى إيطاليا فترة من الزمن ، وترك أخاه الأصغر روجر ، دون قوة كافية أمام قوات المسلمين الضخمة (١) ،

وساعد على بطء التقدم النورمانى ، وفاة ابن الثمنة سنة ١٠٦٢ م ، لأن النورمان فقـــدوا خليفا مفيداً لهم ، كما وقع نزاع بين جويسكارد وأخيه روجر حول اقتسام الغنائم ، وفى تلك الأثناء ، تحسن موقف المسلمين فى صقلية ، ولا سيما أن مساعـدات كانت تأتيهم من شمالى أفريقية ، غير أن جويسكارد النورمانى استطاع فى عام ١٠٧١ م أن يكمل فتوحه فى إيطاليا الجنوبية بالاستيلاء على بارى ومن ثم تفرغ لصقلية ، واستولى على بالرمو فى العام التالى كما سقطت سراقوسة عام ١٠٨٥ م (٢) ، وبذلك تحكم النورمان فى جميع الأجـــزاء الشمالية لجزيرة صقلية ، ومع ذلك ظل المسلمون يمتلكون الجزء الأكبر من الجزيرة ، وقد تحسن مركز النورمان بسبب تضامنهم ووحـدتهم فضلا عن تعـاون الأخوين ، وعـدم وجود بارونات إقطاعيين أقوياء يخشى بأسهم كما هو الشأن فى إيطاليـا الجنوبية ، وكان الأخوان شـديدى الحرص فى المنح الإقطاعية ، وهو النظام المألوف

---

(١) C. Med. H.. Vol. V, P. 177 ; Brooke, pp. 222 - 227. Waern, oP. Cit., pp. 29 - 30

(٢) Encycl. Britt. Art. Eisily

وقتئذ فكانت منحها صغيرة تجنباً لأخطار تجيء من جانب الأتباع فى المستقبل (١) .

تلا ذلك فترة هدوء لانشغال جويسكارد فى إيطاليا الجنوبية ضد ريتشارد حاكم كابوا Capua ، وضد اللومبارد الخاضعين للبابوية . وبسبب حملات جويسكارد كذلك على اليونان ، بجانب تمرد بارونانه عليه فى الأرض الإيطالية ، وتوفى جويسكارد عام ١٠٨٥ م ، فخلفه ابنه روجر بورسا R. Borsa بلقب دوق Duke (١٠٨٥ — ١١١١م)، ويحكم فى جنوبى إيطاليا ، غير أن روجر هذا كان ضعيفا ، فثار ضده البارونات ، وكانت أقوى شخصية يخشى بأسها هى شخصية أخيه بوهيمند Bohemund ، أعظم شخصية نورمانية معاصرة ، ظل بوهيمند شوكة فى جنب أخيه ، حتى أتيحت لمطامعه فرصة الحروب الصليبية ، فاشترك فى الحملة الصليبية الأولى ، طمعا فى تأسيس إمارة له فى الشرق ، ونجح فى تأسيس إمارة أنطاكية الصليبية ١٠٩٨ م (٢) .

وكان يحكم الأملاك النورمانية فى صقلية وقتئذ كونت روجر Count Roger وهو الأخ الأصغر لروبرت جويسكارد ، لم يستطع الدوق روجر بورسا أن يتحكم فى عمه كونت روجر ، وأن يفرض سيادته عليه وإنما نظر إليه باعتباره حاميا له ، ولذلك منحه حق الامتلاك التام للقلاع القائمة فى قلورية ، وهذه كان يقتسمها مع أخيه جويسكارد من قبل ؛ ويمتاز

---

(١) Scott, II, pp. 55 - 56 ; Brooke, pp. 223 - 224

(٢) Brooke, P. 224

كونت روجر بالعبقرية الحربية ، وبعد النظر ، ولذلك أكثر من بناء الحصون والمعاقل حتى يتمكن من الصمود أمام المسلمين بصقلية ، وأخذ يعمل على تقوية معسكره ، بتشجيع الهجرة من جنوبى إيطاليا ومن الولايات اللومباردية ، بل إنه أحسن سياسة الرعايا المسلمين الذين كانوا يخضعون له فى الأملاك النورمانية بشمالى صقلية ، وجند من المسلمين بعد أن منحهم حرية العقيدة ، وعنى بالقوة البحرية ومع ذلك فلم تصل إلى الدرجة التى كانت عليها البحرية الإسلامية وقتئذ .

ويحتمل أن كونت روجر كان قد نجح من قبل فى عقد معاهدة مع الدولة الزيرية ليحول دون مساعدتها لمسلمى صقلية ، وبهذه الخطوة الدبلوماسية ، استطاع أن يوسع الأملاك النورمانية فى صقلية ، فى حياة أخيه الأكبر ، فهو الذى استولى فى عام ١٠٧٧ م على ترابانى Trapani وتاورمينا Taormina فى عام ١٠٧٩ م كما نجح فى عام ١٠٨٤ م ، وذلك قبيل وفاة أخيه بسنة ، فى القضاء على مقاومة المسلمين ، مع استمراره على حسن معاملة المسلمين الخاضعين له . والهدف الأكبر للكونت روجر هو الاستيلاء على سرقوسة التى نجح فى الاستيلاء عليها عام ١٠٨٥م ، ورغم بقاء بعض الفلاع المفرقة فى أيدى المسلمين ، إلا أن نهايتهم قربت ؛ واستولى فى عام ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م على مدينة نوتو Noto وأكمل فتح صقيلة نهائيا (١) .

* * *

(١) Historians' History of the World Brooke pp 224-275 Vol. IX, PP.72-76

أضحى كونت روجر، وتكتبه بعض المصادر العربية الجط كندرجار، سيد صقلية وأقوى حاكم فى تلك المنطقة، وشغل المكانة التى شغلها أخوه جويسكارد من قبل، وتطلعت إليه البابوية لمحالفته و حماية إيطاليا، نظراً لضعف روجر بورسا، وكان نفوذ كنت روجر أقوى وأوسع من مجرد ملك إقطاعى (١). ولعل أبرز جوانب سياسته، تسامحه مع المسلمين الذين صاروا رعية له فى صقلية، حتى دفعوا له الضرائب، وعاونوه فى حكومته، ولاسيما أن روجر أبقى على النظم الإسلامية القائمة والتقسيم الإدارى الإسلامى، وعلى الألقاب الإسلامية لبعض المناصب العليا (٢)؛ وبلغ من تعاون المسلمين معه، أنه فى الحصار الذى ضربه النورمان على مدينة أمالفى فى إيطاليا الجنوبية عام ١٠٩٦ م، كان من بين قواته، عشرون ألف مسلم؛ واتخذ روجر وخلفاؤه من بعده وزراء من المسلمين، وأبقوا على اللغة العربية كلغة تخاطب بين جميع الطبقات، وأصدروا بها القرارات والقوانين، كذلك ضرب النورمان نقودهم على النظام الإسلامى، فكانت تطبع عليها آيات من القرآن الكريم فضلا عن كتابة التاريخ الهجرى، كذلك سادت العادات الشرقية الإسلامية فى المواكب الملكية، فتحمل المظلة على رأس الملك النورمانى، وقام الملك النورمانى كذلك بتقليد خلع الخلع، وتنظيم قصره على النسق الإسلامى كما أن التعليم ظل قائما على يدا لأساتذة العرب وبجانبهم أساتذة يهود، ولم

---

(١) Brooke, p. 225

(٢) Waern, pp. 31 — 32, Encycl. Britt.

يحاول روجر أن يجبر مسلما على اعتناق المسيحية (١)

ومن ناحية أخرى ، شجع روجر النورمانى المهاجرين المسيحيين على النقلة إلى بلاده ، واعترف بنفوذ البابا الروحى ، وأحل الطقوس اللاتينية فى الجزيرة محل الطقوس الإغريقية (٢) .

مات روجر عام ١١٠١ م ، وترك فى صقلية حكومة قوية مدعمة ، تولاها من بعده ابنه سيمون Simon لمدة عشر سنوات ثم الابن الثانى المشهور وهو روجر الثانى الذى بدأ حكمه عام ١١١٢ م ويشبه الكتاب ، كونت روجر ، وهو روجر الأول ، بوليام الفاتح النورمانى فى السياسة والدهاء والعبقرية الحربية والإدارية ، وهو أول سلسلة من الحكام الأقوياء العباقرة من النورمان ؛ بل إن نجاح خلفائه من بعده ، يعزى إلى الأسس القوية التى وضعها هو (٣) .

* * *

ولما سقطت صقلية فى أيدى النورمان ، لم يبق إلا مالطة وقوصرة ، تحميان شواطىء أفريقية ، فأرسل كونت روجر فى عام ١٠٩١ م أسطولا إلى مالطة ، أجبر حكامها المسلمين على الاعتراف بسيادته ؛ وظل المسلمون

---

(١) Scott, II, PP. 64 - 75 ؛ انظر ما فصله ابن حوقل والإدريسى عن صقلية النورمانية .

(٢) Waern, PP. 32 — 34 ; Brooke, P. 225

(٣) Brooko, PP. 225 — 227 ; C. Med. H., IV, PP. 124 — 186; Hist, History, of. Cit., PP. 76—77; Waern, PP. 35 — 40, Encyel. Birtt.

فى مالطة ، رغم تبعيتها السياسة إلى النورمان (١) . كذلك استولى النورمان على جزيرة قوصرة (٢) .

ولم يكتف النورمان بإزالة سلطان المسلمين عن هذه الجزائر ، بل حاولو الاعتداء على مدينة المهدية بشمالى أفريقية عام ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م ؛ ورغم هزيمة النورمان أمام جيوش بنى زيرى فى وقعة الديماس ، إلا أنهم جددوا المحاولة عام ٥٤٢ هـ / ١١٤٨ م واستولوا عليها فترة من الزمن بسبب الاضطرابات التى شملت شمالى أفريقية عقب نزول العرب الهلالية (٣) .

* * *

وفيما يتعلق بجزيرة سردانية ، كان زوال النفوذ الإسلامى الأخير فيها ، على يد حلف من بيزا وجنوة ، اللتين أغراهما الانتصار على مجاهد العامرى عام ١٠١٦م ، فتابعا السير نحو سردانية . والواقع أن مجاهدا لقى الكثير من المصاعب فى سردانية ، لسبب تمرد رجال جيشه نتيجة لأطماعه اللانهائية ، وربما كان منشأ هذا التمرد من جانب فريق من المسيحيين الذين يعملون فى جيشه وتحت رايته (٤) .

---

(١) لقد لقى المسلمون المعنت فى مالطة ، حين انتقل إليها فرسان الاسبتارية بعد طردهم من رودس على يد العثمانيين عام ١٥٢٣ م ؛ وأخذ الاسبتارية فى مالطة يقطعون الطريق البحرى على الأساطيل الإسلامية التركية أو الأفريقية ، ونقلوا آلاف الأسرى المسلمين إلى جزيرة مالطة ؛ ومن أجل ذلك حاول العثمانيون الاستيلاء على مالطة عام ١٥٦٥ م ، لكن محاولاتهم لم تنجح . ولم يتمكن من القضاء على الاسبتارية فى مالطة سوى نابليون بونابرت وهو فى طريقه إلى مصر ١٧٩٨ م ، واتخذ من القضاء عليهم مادة للدعاية له قبل المصريين

(٢) حسنى ص ٦١ — ٦٨

(٣) حسنى ص ٦٧ — ٦٨ ؛ مؤنس ص ١١٣ — ١١٤

(٤) كلياليا ص ٢٠٤

وفى ذلك الوقت أخذ مجاهد يفكر فى خطة للانسحاب من الجزيرة قبل وصول القوات المشتركة ، نظراً لضعف مركزه فى الجزيرة ، وعلى الرغم من نصيحة قائده البحرى أبى خروب بعدم الانسحاب ، أمر مجاهد بالرحيل لكنه لم يلبث أن تعرض لعاصفة بحرية هوجاء ، وحينئذ حاول الالتجاء إلى مكان أمين على سواحل سردانية ، فنصحه أبو خروب بعدم ملاءمة المكان ، غير أن العاصفة قد اشتدت ووصلت سفن الأعداء إلى مياه سردانية عام ١٠١٦ م ، ووقعت الكارثة ، ولم ينج من سفنه إلا عدد قليل ، يقول شاهد عيان ، وهو أبو الفتوح ثابت بن محمد الجرجانى (ت ٤٣١ هـ / ١٠٣٩ م) :

« كنت مع أبى الحبيش مجاهد أيام غزاته سردانية ، فدخل بالمراكب فى مرسى ، نهاه عنه أبو خروب رئيس البحريين ، فلم يقبل منه ، فلما حصل فى ذلك المرسى ، هبت ريح ، فجعلت تقذف مراكب المسلمين مركبا مركبا إلى الريف ، والروم وقوف لا شغل لهم إلا الأسر والقتل للمسلمين ، فكلما سقط مركب بين أيديهم ، جعل مجاهد يبكى بأعلى صوته ، لا يقدر هو وولا غيره على أكثر من ذلك ، لارتجاح البحر وزيادة الريح ، فيقبل علينا أبو خروب وينشد :

بكا دوبل لا أرقأ الله عينه ألا إنما يبكى من الذل دوبل(١)

---

(١) الدوبل حيوان قيل هو الخنزير أو ذكره أو ولده أو ولد الحمار أو الذئب الهرم (القاموس المحيط)

ثم يقول (أى أبو خروب) : قد كنت حذرته من الدخول ها هنا فلم يقبل(١) .

ويصف ابن الخطيب هذه الكارثة البحرية بقوله :

« وتداعى عليه ملوك الأرض الكبيرة ... فكانت عليه وقعة شنيعة ، وظهور ما سمع بمثله ، فقتل من أصحابه وجنوده عالم لا يحصى ، وملكوا أسطوله واستنقذوه ، واستولوا على حريمه ، وفيهن نساؤه وبناته وعلى ولده وجود أمه النصرانية ، افتدى بعضهن سريعاً ، وتأخر البعض كولده على فإنه وقع فى سهم صاحب الألمانيين . . . فاحتبس به للمباهاة ، وأعيا على والده فداؤه ، وقد بذل فيه عشرة آلاف ، إلى أن خلص بعد زمن طويل ، ولم يخلص من أسطوله أجمع إلا خمسة مراكب وأربعة قوارب ، وكان شحنة الأسطول المغلول ، من سبى سردانية ، يوم ظهور العدو عليه ، ثمانية آلاف فارس(٢) » .

لم يفكر مجاهد فى غزو سردانية بعد هذه الكارثة ، ومات عام ١٠٤٥ م .

حدث بعد ذلك صراع بين بيزا وجنوة حول السيادة على جزيرة سردانية ، فأتيحت الفرصة للمسلمين للعودة إلى الجزيرة ، فغزوها من جديد عام ١٠٥٠ م ، ولكن احتلالهم كان مؤقتا ، فقد نهض البابا ليو التاسع

---

(١) كلبليا ص ٢٠٥ (عن بغية الملتمس)

(٢) أعمال الأعلام ص ٢١٩ — ٢٢٠

وكون حلفا مسيحيا لطرد العرب من الجزيرة ، بمساعدة أهلها ، وبذلك تم إجلاء المسلمين نهائيا عن سردانية فى ذلك العام(١) .

وفى نفس العام المذكور (١٠٥٠ م) تعاونت جنوة وبيزا على إزالة السيادة الإسلامية عن جزيرة قورسيقة كذلك(٢) .

أما جزر البليار ، وكان يحكمها مجاهد ، فقد ظلت خاضعة لحكمه حتى وفاته ، وكان يحكمها بالنيابة عنه ، عبد الله بن أخى مجاهد ، فظل عبد الله يتولى حكومتها خمسة عشر عاما من ٤١٣ هـ حتى توفى سنة ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م ، خلف عبد الله فى حكومة البليار الأغلب مولى مجاهد ، وخلال حكم الأغلب مات مجاهد . وخلفه ابنه على الملقب بأقبال الدولة ، ويقيم فى دانية ، وكان الأغلب كثير الغزو فى البحر ، فاستأذن عليا فى ذلك فأذن له ، وقبل أن يغاد الأغلب البليار عين صهره سليمان بن مشكيان نائبا عنه ، فظل يحكمها خمس سنين حتى وفاته ، فولى على مكانه مبشراً الملقب بناصر الدولة ؛ وخلال حكم مبشر على ميورقة ، سقطت دانية فى يد المقتدر بن هود صاحب سرقسطة من ملوك الطوائف(٣) ؛ وتعرض مبشر لأطماع كونت برشلونة الفرنجى الطاغية وهو رامون برنجاريو الثالث Raman Berengario III إذ تحالف هذا الكونت مع جمهورية بيزا وهاجم البليار واستولى على جزيرة يابسة ثم حاصر ميورقة لمدة عشرة شهور ، فاستنجد مبشر بعلى

---

(١) كابليا ص ٢٠٦ — ٢٠٨

(٢) مؤنس ص ١١٣

(٣) راجع ماسبق

ابن يوسف بن تاشفين صاحب المغرب ، فلم يستطع ابن تاشفين إنجاده إلا بعد سقوط ميورقة فى يد صاحب برشلونة عام ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م ، وتوفى مبشر فى ذلك العام(١) .

نجح المرابطون فى استخلاص الجزيرة من يد صاحب برشلونة وحكموها سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م ، وظلوا بها حتى سنة ٦١١ هـ / ١٢١٤ م ، ثم حكمها من بعدهم الموحدون من ٦١١ هـ إلى ٦٢٧ هـ (١٢١٤ - ١٢٢٩ م) ؛ وفى عام ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م ، فتح جاكومو الأول Giacomo di Avagona صاحب أرغونة ، هذه الجزر وطرد منها المسلمين نهائيا(٢) .

• • •

أما كيف انتهى النفوذ الإسلامى فى فرنسا ، فالمعروف أن قلعة فراكسينيتوم ، فى جبل القلال ، كما ورد فى قلة من المراجع العربية والفارسية(٣) ؛ كانت القاعدة الإسلامية الباقية فى بروفانس إلى قرب نهاية القرن العاشر الميلادى ، وبواسطة هذه القاعدة تحكم المسلمون فى بروفانس وفى منطقة الألب وشمالى إيطاليا وبعض بلاد سويسرا ، ولذلك أضحت فراكسينيتوم عاصمة الممتلكات الإسلامية فى تلك البقاع .

حاول المسيحيون اقتلاع المسلمين من هذه المناطق ، وأخذ كفاحهم صورة الحروب الصليبية والوطنية ، وتعرض المسلمون لهذه الحرب فى جميع البلاد التى يقيمون فيها بأوربا ، وذلك فى أوقات متقاربة وسريعة .

---

(١) صبح الأعشى حـ ٥ ص ٢٥٦ — ٢٥٧ ؛ كاليا ص ١٩٠ — ١٩١

(٢) صبح الأعشى حـ ٥ ص ٢٥٧ ؛ كاليا ص ١٩١ — ١٩٢

(٣) ريبو Brooke P 835

وتزعم حركة الكفاح المسيحى كوراد الثالث Corrad III ، أمير برجنديا وسويسرا وفرانش كونتى Franche-Conté ، والأخيرة هى التى كانت تعرف باسم « دوقية برجنديا » ، وهى غير مملكة برجيديا(١) ، ويقال إن كوراد أوقع بين المجريين الذين اجتاحوا الألزاس عام ٩٥٢ م وبين المسلمين فى بروفانس ، ثم أهوى على الفريقين خلال المعركة ، وأفنى معظمهم ، ويحتمل أن هذه المعركة وقعت فى سافوى(٢) .

وحوالى عام ٩٦٠ م ، تمكن المسيحيون من طرد العرب من جبل سان برنارد ، نسبة إلى القديس برنارد دمنثون Dementhone الذى اشترك فى القتال(٣) . وبعد ذلك بنحو اثنتى عشرة سنة ، وقع حادث أسر القديس مايول Mayeul مقدم دير كلونى(٤) ، وقافلته خلال عودته من روما ، على أيدى المسلمين المتحكمين فى المنطقة الواقعة بين مدينتى جاب Gap وإمبرون Embrun فى أعالى نهر ديرانس ، وكان للمسلمين ثلاثة أبراج محصنة فى إمبرون . جاء هذا الحادث مثيراً للمسيحيين ، وكان له دوى عظيم فى جميع الأقطار المسيحية ، نظرا لمكانة هذا القديس(٥) ، فقام النبيل بيبون Bebon من قرية نويى Noyers قرب مدينة سسترون Sisterons - على نهر ديرانس - واستنفر قومه ضد المسلمين النازلين بنواحى

---

(١) ريتو : Brooke, P. 335

(٢) غزوات العرب ص ١٧٥ — ١٧٦ (مجموعة دون بوكى Don Boquet)

(٣) غزوات العرب ص ١٨٢

(٤) Brooke, P. 116

(٥) ريتو : غزوات العرب ص ١٨٦ — ١٨٧

سسترون ، وبنى حصنا بالقرب من حصن المسلمين القائم على جبل بترا إمبيا Petra-Empia ، وأخذوا يرقبون حركات المسلمين للانقضاض عليهم ، وفشلت محاولات المسلمين للحيلولة دون بناء الحصن ، وأخيراً استطاع بيبون ومن معه اقتحام حصن المسلمين نتيجة خيانة حارس الباب ، وإن فعل ذلك انتقاما لعرضه ، ونجح المسيحيون فى إبادة من بالحصن ، ومن أجل هذا العمل ، سجلت الكنيسة الغربية بيبون ضمن عداد القديسين (١) .

وفى نفس الوقت ، ثار أهالى مدينة جاب ، عاصمة الألب العليا ، وكان المسلمون يحتلونها منذ مدة طويلة ، وانقضوا على المسلمين بزعامة وليام كونت بروفانس ، وكانت هذه المدينة تتبع بروفانس(٢) . وفى منطقة الألب السفلى، طرد العرب من مدينة ري Biez ، وتقع شمالى نهر فردون Verdon أحد فروع ديرانس المتفرع من الرون ، ويحتفل أهل هذه المدينة فى كل سنة بعيد خلاصهم من المسلمين ، وهو اليوم الذى يصادف عيد العنصرة(٣) .

أما قلعة فراكسينيتوم نفسها ، فجاءت نهايتها بعد محاولات ملحة متكررة من جانب مسيحى بروفانس، وكان وليام كونت بروفانس صاحب

---

(١) رينو : غزوات العرب ص ١٨٦ — ١٨٨ (مجموعة الراهب اليسوعى بالاند Baland وهى مجموعة تاريخ القديس أو مجموعة البالندين :
(Recueil des Ballandistes)

(٢) رينو : غزوات العرب ص ١٨٦ — ١٨٧

(٣) رينو : غزوات العرب ص ١٩٢

الفتح المعلى فى أغلب هذه المحاولات . استنفر وليام أهالى كونتيته لقتال المسلمين ، فهبوا معه ، وتوجه نحو فراكسينيتوم ، وأخذوا يسدون المسالك على المسلمين ، فنزل إليهم العرب ودارت معركة عنيفة فى نواحى بلدة دراجنجان Dragengman ، فى مكان يقال له تورتور Tourtour حيث يوجد إلى الآن برج ، أقيم منذ ذلك اليوم تخليداً للانتصار فى تلك المعركة التى انتهت بهزيمة المسلمين . اضطر المسلمون إلى الالتجاء إلى الغابات المجاورة ، وقتل أكثرهم وأسر الكثير ، وأخيرا سقط حصن فراكسينيتوم عام ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م (١) .

وهكذا سقطت القلعة الإسلامية العتيدة ، وهى التى بقيت بيد المسلمين نحو ٨٦ سنة (٨٨٩ — ٩٧٥) ، وامتنعت على أعدائها ، بفضل موقعها ومناعتها الطبيعية ، إذ كانت تقيم فيما أسمته القلة من المراجع العربية والفارسية : « جبل القلال » .

قال الأصطخرى : « وأما جبل القلال ، فإنه كان جبلا فيه مياه خرارة فوقع إليه قوم من المسلمين فعمروه ، وصاروا فى وجوه الإفرنجة ، لا يقدر عليهم لامتناع مواضعهم ، ومقداره فى الطول يومان » (٢) .

وقال ابن حوقل : « وجبل القلال الذى بنواحى إفرنجة ، بأيدى المسلمين ، عمارة وحرث ومياه وأرض ، تقوت من لجأ إليهم ، فلما وقع عليه المسلمون ، عمروه وصاروا فى وجوه الإفرنجة ، والوصول إليهم ممتنع

---

(١) رينو : غزوات العرب ص ١٨٨ — ١٩١

(٢) المسالك والممالك ص ٥١ ، وفى طبعة دى غوية De Goeje ص ٧٠ — ٧١

لأنهم يسكنون وجه الجبل ، فلا طريق إليهم ، ولا متسلق عليهم ، إلا من جهة ، هم منها آمنون ، ومقداره فى الطول نحو يومين (١) » .

كذلك أشار ياقوت الرومى الحموى إلى هـذا الجبل بصدد حديثه عن أنكبردة (٢) — وهى دوقية بنفنتم اللومباردية الواقعة جنوبى الأملاك البابوية فى إيطاليا ـ وأيضاً فى مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع.

وعرف كتاب الفرس هذا الجبل وسموه «كولا فلال» أى جبل القلال ووردت بصدده ، عبارة فارسية لا تخرج فى معناها عن المعنى الذى أورده الأصطخرى وابن حوقل فى عبارتيهما . ويقول رينو ، إن الأوصاف التى وردت فى هذه النصوص تنطبق على فراكسينيتوم ، وذلك فى رسالة بعث بها لناشر كتاب مراصد الاطلاع (٣) .

وبزوال هذه القلعة ، زالت جميع أملاك المسلمين فى جميع المناطق التى كانوا يقيمون بها ، كما زال نفوذهم فى الأرض الكبيرة ، وفى منطقة الألب وفى سويسرا فيما وراء الألب .

استولى المسيحيون على الأراضى التى كانت بيد المسلمين ، ووزع كونت وليام الكنوز والمغانم التى كانت تملأ الحصن ، بين قومه .

---

(١) كتاب صورة الأرض ص ٥ ٢٠

(٢) معجم البلدان حـ ١ ص ٢٧٣

(٣) رينو : غزوات العرب ص ١٦٣ ـ ١٦٥

والملاحظ أن رجال الدين ظفروا بأغلب الأراضى والكنوز ، وذلك لأن رجال الدين ساهموا مساهمة فعلية فى هذه الحروب ، مثل أساقفة مدينتى فريجوس ونيقة . ومن الذين أصابوا الثروة نتيجة هذه الحروب ، رجل من جنوة ، كافح مع البروفنساليين ، فمنح ضياعاً واسعة عندشواطىء خليج سان تروبى الذى تطل عليه قلعة فراكسينيتوم ، كما ظفر مسيحى آخر على مدينة كاستلان Castellane الواقعة فى أعالى نهر فردون أحد فروع الرون ، وشرقى مدينة ريى Riez . وربما كانت أصول ثروة آل كاستلان المعاصرين للمستشرق رينو (فى القرن التاسع عشر) راجعة إلى هذه الحروب(١) . أما أراضى مدينة طولون ، فقد وقع نزاع حول اقتسامها ، لسبب ضياع معالم التمليك القديمة ، لطول مقام العرب بها ، ولكن كونت وليام أرضى الجميـــع ، وهذا ماخلد اسمه فى التاريخ الفرنسى حتى لقب بأبى الوطن (٢) .

على أن سقوط حصن فراكسينيتوم عام ٩٧٥ م ، لم يعن قطع دابر العرب دفعة واحدة ، وإن عنى زوال أملاكهم ونفوذهم وأهميتهم فى تلك الجهات ، وإنما بقيت شراذم عربية متناثرة فى جبال الألب وهذه استسلمت أو استرقت أو أجبرت على اعتناق المسيحية وذابت فى الوطنيين . ويقال إن هذه الشراذم بقيت إلى ما بعد عام ٩٨٠ م ، بل إلى مابعد عام ١٠٠٠م ، ولكنها على أية حال لم تكن ذات خطر أو أهمية (٣) .

---

(١) رينو : غزوات العرب ص ١٩١ — ١٩٢

(٢) رينو : غزوات العرب ص ١٩٢

(٣) رينو : غزوات العرب ص ١٨٨ ، ١٩٢ (ودلبين Delbene)

ولا شك أن هناك كثيراً من البقايا المادية التى تركها العرب فى إقليم بروفانس ، منها : بقايا آبار وكهوف وأحجار منحوتة وبقايا مبان ، ومن العجيب أنه لم يعثر على كتابة عربية فى بقايا حصن فراكسينيتوم ، وربما كانت موجودة وذهبت مع ما تصدع منه ، كذلك وجدت بقايا الحصون العربية المتناثرة فوق قنن الجبال ، وبقايا الأبراج والمراقب والأربطة ، على طول ساحل بروفانس ، بين فرنسا وإيطاليا ، وكانت تشعل عليها أو منها النيران ليلا للتخاطب أو طلب الإمدادات أو للإنذار بحرب ، ومن هذه الأبراج ما يرجع إلى أوائل القرن الثامن الميلادى .

ثم إن العرب فى بروفانس ، هم الذين استثمروا شجر البلوط Fraxini ولا تزال توجد غابة تنسب إليهم ، كما أنهم استخرجوا القطران (القار) من أشجار الصنوبر والأرز وقلفطوا به المراكب ، حتى إن أهل بروفانس يعبرون باسمه العربى دون تحريف (Duitran) ، على خلاف بقية أهل فرنسا الذين يسمونه Gsoudran (١) . وإن بدا فى هذا اللفظ الأخير كذلك الأصل العربى .

* * *

وفى البر الطويل ، وهو إيطاليا ، تضافرت قوات الإمبراطورية البيزنطية ، والجمهوريات الإيطالية ، مثل البندقية وبيزا وجنوة ، وكذلك الإمبراطورية الغربية والبابوية ، تضافرت هذه القوات جميعها على طرد المسلمين من إيطاليا .

---

(١) رينو : غزوات العرب ص ٢٣٧ — ٢٣٩ (ودنيس Denys ، وللأخير كتاب عن مقاطعة الفار Le Var فى بروفانس ، حيث توجد فراكسينيتوم)

ولذلك تم إجلاء المسلمين عن بنفنتم عام ٨٤٧م بعد أن مكثوا بها نحو خمس سنوات . وعن برنديزى عام ٨٧٠ م . بعد نحو ثلاثين سنة من مقام المسلمين بها . وعن بارى فى العام التالى . بعد ما يقرب من ثلاثين سنة من حكمهم فيها . وعن ريو عام ٩٠٥ بعد أربع سنوات من نزولهم بها . وعن جارليانو عام ٩١٥م بعد أن امتد سلف من المسلمين بها نحو أربعين سنة(١)

وقد تدخل الإمبراطور أتو الثانى (٩٧٣ — ٩٨٣) ، نظراً لانشغال بيزنطة بالفتن عقب وفاة الإمبراطور البيزنطى حنا الشميشق J. A. T. Zimisces عام ٩٧٦ م ، وكانت الإمبراطورية الغربيـــة تنافس بيزنطة فى إيطاليا ، ودخل أتو إيطاليا عام ٩٨٢ م وانتزع طارانت من المسلمين ، لكن المسلمين داهموه وأبادوا جيشه فى نفس العام ، وكاد الإمبراطور أتو يقع فى أسر المسلمين أو البيزنطيين الذين لم يرضوا عن تدخله فى إيطاليا ، وأعتبروه بربرياً (٢) .

وفى شمالى إيطاليا ، كان احتلال المسلمين مؤقتاً ، بل كان أقرب إلى الغزو السريع منه إلى الفتح والاستقرار ، مثل نوفا أوستيا Nova Ostia وروما وكيفيتا فكيا Civita Vecchia وأوزيرو بجزيرة خرسو على ساحل

---

(١) راجع ماسبق وانظر : البلاذرى ص ٢٧٧ ؛ ابن الأثير حـ ٤ ص ٢٣٣ ، حـ ٦ ص ١٨٢ ؛ صبح الأعشى حـ ٥ ص ٤١٠ ؛ لوبون ص ٣٠٢ ؛ أرشيبالد ص ٢١٥ ، ٢١٨ — ٢٢١ ، ٢٧٥ ؛ كرد على حـ ١ ص ٢٧٦ — ٢٧٨ ، المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ١١٢ — ١١٣ ، كليليا ص ١٩٨ — ١٩٩ ؛ Deanesly, PP. 375, 450, 456; Hunt, PP. 13 - 14, Scott, 11, Pp. 25 - 7; C. med. H. Vol Iv pp. 141 - 149 - 50

(٢) Brooke, PP. 53 — 54

دالماشيا ، وأنكونا وكوتشيو وجنوة ولونى ، «الأخيرة كان مجاهد الدانى العامرى قد غزاها عام ١٠١٥ واتخذها قاعدة لفتوحه ، ولكن تغير الأحوال العامة فى أوربا ، واليقظة الشاملة فى القرن الحادى عشر ، حالت دون استقراره فيها وبرزت جهود البابا بندتو الثامن (١٠١٣ — ١٠٢٤) فى الدعوة لطرده عنها أو المساهمة الفعلية فى الحرب ، فقد أعد حملة ، تحملت خزانة البابوية نفقاتها ، كما ألف البابا بين بيزا وجنوة المتنافستين ، فاشتركتا معا فى هذا الكفاح ، ونجحت القوات المتحالفة فى طرد مجاهد عن لونى فى معركة بحرية فاصلة عام ١٠١٦ م (١) .

* * *

وتعتبر أسبانيا ، آخر معقل إسلامى فى أوربا . فقد ظل المسلمون بها ما يربو على سبعة قرون . وبالنظر إلى تغير الأحوال فى أوربا منذ مطلع القرن العاشر الميلادى ، وتطور الأحوال فى الجبهة الإسلامية عامة ، وفى أسبانيا الإسلامية بصفة خاصة (٢) ، كانت الحلقة تضيق على المسلمين فى أسبانيا تدريجياً ، لسبب إلحاح الدويلات المسيحية الوطنية التى لم يقض عليها القضاء التام منذ وطئت أقدام المسلمين أسبانيا ، وجاءت فترة يقظة ، زمن حجابة المنصور بن أبى عامر لهشام الثانى الأموى خليفة قرطبة (٣٣٦ — ٣٩٩ هـ / ٩٧٦ — ١٠٠٨ م) لكنها كانت قصيرة الأجل ، ويقال

---

(١) راجع ما سبق وانظر . المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ١١٢ ، ارشيبالد ص ٢٣٤ ، كليليا ص ١٩٩ — ٢٠٠ ، Scott, II, P. 86; Hunt, P. 14 ; C. Med. H. Vol. III, PP. 149 — 50

(٢) راجع ما سبق

إن ابن أبي عامر غزا ٥٦ غزوة فى مدة ٢٧ سنة لم يهزم فى واحدة منها ، فجاءت وفاته عام ١٠٠٢ م متنفساً للمسيحيين حتى علقوا على زواله وتمنوا له سوء الخاتمة (١) .

وبزوال خلافة قرطبة عام ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م ، وتحول قرطبة إلى جمهورية إسلامية زمن بنى جهور (٤٢١ — ٤٦٢ هـ / ١٠٣٠ — ١٠٦٩) تحرش المسيحيون بالمسلمين ، وكانت مملكة أشتوريا Asturias المسيحية بشمالى أسبانيا ، وهى التى عرفت باسم : مملكة ليون ، قد تزعمت حركة الكفاح المسيحى ضد مسلمى أسبانيا منذ القرن التاسع الميلادى ، إذ كانت قشتالة لاتزال كونتية صغيرة كما برزت قوة مملكة نافار Navarre المسيحية ولا سيما زمن ملكها سانكو جارزيا الثالث Sancho Garzia III (١٠٠٠ — ١٠٣٥ م) ، الذى ضم إليه قشتالة عن طريق الوراثة ، وشغلت نافار بمحاربة الفرنجة والمسلمين .

وفى منتصف القرن العاشر الميلادى وجد فى أسبانيا ثلاث ممالك مسيحية هى : قشتالة ونافار وأراجون ، وظهرت زعامة قشتالة فى النضال ضد المسلمين (٢) . واستطاعت قشتالة زمن ألفونسو السادس أن تنتزع مدينة طليطلة من المسلمين عام ٤٨٧ هـ / ١٠٨٥ م ، وكانت تحت حكم بنى

---

(١) وعبارتهم : « إنه مات ولان قبره فى جهنم : Mortus est Almanzor et Sepultus eet in inferno »

(انظر فشر ص ٣٨٨ ؛ Brooke, P. 114)

(٢) Brooke PP. 114 — 115

ذى النون من ملوك الطوائف من البربر (١) ، كما استطاع ألفونسو الأول ملك أرغونة أن يستولى على مدينة سرقسطة عام ١١١٨ م ، وكان يحكمها آل منذر بن يحي التجيبي من ملوك الطوائف من العرب .

ترتب على هذين الانتصارين ، اتساع رقعة البلاد المسيحية على حساب مسلمى الأندلس ، ولو أدرك المسلمون ضعف الجبهة المسيحية ، لاستطاعوا البقاء فى أسبانيا أو على الأقل لطال عمرهم أكثر ، فقد كان المسيحيون الأسبان يختلفون فيما بينهم من ناحية اللغة والتقاليد وأساليب الحكم ، وكان اتحاد جبهتهم أمراً غير ميسور دائما ، ولعل هـــذا هو السبب فى طوال الحروب بين الجانبين (٢) .

أخذت حروب المسيحيين ضد مسلمى أسبانيا صفة الحرب الصليبية . وليس من باب الصـــدفة التوافق الزمنى بين عصر الحروب الصليبية فى الشرق وفترة ازدياد الضغط المسيحى على مسلمى أسبانيا ، فإن سقوط طليطلة لايبعد كثيراً عن مطلع الحروب الصليبية التاريخية فى الشرق ، وهى التى بدأت بعقد مجمع كلرمونت Clermont بفرنسا عام ١٠٩٥ م ، كما أن سقوط آخر معقل صليبي فى الشرق فى يد المسلمين ، وهو عكا عام ١٢٩٠م زمن السلطان خليل بن قلاوون ، لايبعد كثيرا عن استيلاء مسيحى أسبانيا على منطقة مرسية Murcia الإسلامية عام ١٢٦٦ م (٣) .

---

(١) راجع الروض المعطار ص ١٣٠ ـ ١٣٥

(٢) Green, P. 59

(٣) فشر ص ٣٨٩ ، انظر الروض المعطار ص ١٨١ ـ ١٨٣

وكانت أسبانيا ، بجانب العامل الوطنى ومساعدة العامل الجغرافى ، تلتهب بالحماس الروحى نتيجة اليقظة الدينية العامة فى أوربا ، ولاسيما وقد دخلها مسيحيون متحمسون من فرنسا وألمانيا وإيطاليا ، وخدموا فى جيش ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وكان لهؤلاء الفرسان المسيحيين أثر فى سقوط طليطلة عام ١٠٨٥م . والملاحظ أن الحركة الدينية المعروفة باسم الحركة السيسترشيانية (١) ، قد دخلت فى مملكتى أرجونة وقشتالة ، كما امتدت إلى البرتغال ، وقامت أديرة هذا النظام فى منطقة الحدود بين المسلمين والمسيحيين ، وعملت كطلائع فى الحروب ضد المسلمين (٢) .

وانضم إلى هذه الطوائف طوائف دينية حربية أخرى ، قامت فى أسبانيا المسيحية وهى الكالاترافا Calatrava والقنطرة Alcantara وأيفوفا Ovova ، وكذلك طائفة سنتياجو (شنت يعقوب) ، نسبة إلى يعقوب الحوارى الذى بنيت على رفاته كنيسة فى هذه المدينة التى عرفت باسمه ، وكان المسيحيون يحجون إليها لزيارة القبر والكنيسة (٣) ، كان لهذه الطوائف جميعها أثر كبير فى إشعال الحماس الدينى والحربى فى المعسكر المسيحى (٤) .

. . . . . .

---

(١) راجع ما سبق

(٢) فشر ص ٢١٧ ، ٣٨٩ ـ ٣٩٠

(٣) اسم المدينة بالكامل Santiago de Compostella ، وهى الآن المدينة الرئيسية فى ولاية كورونى Corogne (انظر الروض المعطار ص ١١٥ ـ ١١٦ ، ١٢١) .

(٤) فشر ص ٣٩٠

استنجد المسلمون فى أسبانيا بالمرابطين فى شمالى غربى أفريقية ، وكانت هذه الطائفة تشتعل حماسا دينياً وحربياً ، وتقوم بحركة جهاد واسعة النطاق فى أفريقية (١) ولم يلبث المرابطون أن سيطروا على أسبانيا الإسلامية بزعامة يوسف بن تاشفين اللمتونى (٢) ، وهزموا ألفونس السادس فى وقعة الزلاقة Zallaca فى ١٢ رجب ٤٧٩ هـ / ٢٣ أكتوبر ١٠٨٦ م (٣) .

وحدث أن كان فريق من الصليبيين المتوجهين إلى الشرق ، على أثر سقوط إمارة الرها الصليبية فى يد عماد الدين زنكى عام ١١٤٤ م ، أن توقف هذا الفريق عند شواطئ البرتغال ، وكان يتكون من مغامرين من الإنجيز والألمان والفريزيين Freisians والفلمنكيين Flémings فأغراهم البرتغاليون بأن فى أسبانيا مجالا للحروب الصليبية والجهاد الدينى ، وليس هناك مايدعو إلى الاتجاه إلى الشرق وتجسم مصاعب الرحلة ، جاء هذا الإغراء من جانب ألفونسو هنريك المغامر الفرنسى من آل كابى ، والذى صار أميراً على البرتغال . بسبب الانتصارات التى ظفر بها على المرابطين فى أسبانيا ، إذ انتصر عليهم فى وقعة أورك Ourique عام ١١٣٩ م وانتزع من المسلمين مدينة شنترين Santarem فى مارس عام ١١٤٧ م .

---

(١) انظر : إمبراطورية مالى التاريخية الإسلامية للمؤلف

(٢) راجع (ابن الأثير حـ ٩ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ ، الاستقصا حـ ٢ ص ٢٣ ـ ٢٤ ، روض القرطاس ص ٩٦ ـ ١١٢ إلخ ، نفح الطيب حـ ٢ ص ٢٧٦ ـ ٢٧٨ :

Gibb, Mohamme davism, P. 122

(٣) فشر ص ٣٩٠ ، الروض المعطار ص ٨٦ ـ ٩٥ ، Brooke, P. 221

استجاب هذا الفريق الصليبي وساعده على انتزاع لشبونة من أيدى المسلمين عام ١١٤٧ م بعد أن استماتت المسلمون فى الدفاع عنها ، حتى سلمت الحامية الإسلامية بشرط حقن دمائها ، ولكن الصليبين نكثوا ما وعدوا (١) .

وجاء الموحدون إلى أسبانيا . بعد المرابطين ، أواخر القرن الثانى عشر وسحقوا جيشاً مسيحياً بقيادة ألفونسو الثامن فى وقعة الأراك Alarcos عام ٥٩١ هـ / ١١٩٥ م (٢) .

كان لهذه الانتصارات أثرها فى نشاط البابا أينوسنت الثالث ، فأخذ يدعو لتوحيد جبهة المسيحيين ضد مسلمى أسبانيا ، وظهرت آثار هذه الدعوة فى اتحاد أرجونة وقشتالة تحت قيادة ألفونسو الثامن ، وانتصار الأسبان على المسلمين فى وقعة العقاب Las Navas de Tolosa عام ٦٠٩ هـ/ ١٢١٢ م (٣) .

وتوالت انتصارات المسيحيين حتى سقطت بلنسية Valencia وقرطبة وإشبيلية وجيان Jasn وقادس Cadiz خلال القرن الثالث عشر (٤) بحيث لم يبق المسلمين فى القرن الرابع عشر سوى إمارة غرناطة، وحكامها من

---

(١) الروض المعطار ص ١١٣ ـ ١١٤ ، باركر ـ ترجمة الباز ـ ص ٩٤ ، Runciman II; PP. 258 — 259; Brooke, P. 108, 335

(٢) الروض المعطار ص ١٢ ـ ١٣ ، فشر ص ٣٩٠

(٣) الروض المعطار ص ١٣٧ ـ ١٣٨

(٤) راجع لهذه البلاد : الروض المعطار ص ١٨ ـ ٢٢ ، ٤٧ ـ ٥٥ ، ٧٠ ـ ٧٢ ، ١٤٥ ـ ١٤٩ ، ١٥٣ ـ ١٥٨ ، ١٨١ ـ ١٨٣ ، الخ . . .

بنى نصر ، وهذه احتفظت باستقلالها حتى نهاية القرن الخامس عشر ، وكلما اشتد الضغط المسيحى عليها ، استنجدت بالدول الإسلامية ، وكانت أقوى دولة إسلامية معاصرة لها هى دولة المماليك ، من ذلك رسالة بعثها أميرها أبو عبد الله بن محمد إلى السلطان المملوكى جتمق فى عام ٨٤٤ هـ / ١٤٤٠ م ، ومضمونها التماس العون ضد « الإفرنج المجاورين » ، فوعد جتمق بمخاطبة العثمانيين ، ثم أمدهم بما استطاع من مال وسلاح لصعوبة إرسال قوة حربية (١) .

ولما طلبت إيزابلا من غرناطة دفع جزية لها ، أجابها أميرها فى عام ١٤٧٦ م بأن « دار الضرب هذه لم تعد تضرب عملة ذهبية ، ولكنها تضرب الفولاذ » ، ولما أستؤنفت الحرب ضد غرناطة ، طلب أميرها العون من قايتباى سلطان المماليك فى مصر عام ٨٩٢ هـ / ١٤٨٦ م ، فاتخذ قايتباى إجراء دبلوماسياً حاسما ، بأن هدد باتخاذ إجراءات عنيفة ضد المسيحيين المقيمين فى دولته ، إذا لم يكف فرديناند وإيزابلا عن حرب غرناطة ، وأرغم قايتباى مسيحى القدس على الكتابة إلى ملوك الإفرنج ، وأنذر بالقبض على رجال الدين المسيحى بالقدس ، وقفل طريق الحج أمام المسيحيين ، كما أنذر بهدم كنيسة القيامة ، وقد نفذ قساوسة القدس ما أمرهم به السلطان المملوكى ، ولكن دون جدوى . فلم يلبث ملوك قشتالة وأرغونة أن استولوا

---

(١) الجراكسة للمؤلف ص ١٤٦ — ١٤٧

على غرناطة نهائياً فى ٨٩٧ هـ/١٤٩٢ م ، وبذلك زال آخر معقل للمسلمين فى أوربا (١) .

• • •

لقد كان للسيادة الإسلامية العربية فى العالم الأوربى آثار بعيدة المدى وضحت فى نظم الحكم وطرق الزراعة وأحوال المجتمع والحضارة الغربية عامة ، غير أن هذا الأثر لم يتأت فقط عن مقام المسلمين الطويل أو القصير فى أرجاء أوربا الجنوبية ، ولكن أيضاً عن العلاقات العامة المتنوعة ، وهى التى قامت بين العالم الإسلامى والعالم الغربى ، وهذا وذاك له مبحث آخر .

---

(١) انظر : الجراكسة للمؤلف ص ١٤٦ ـ ١٤٧ ، الدكتور عبد العزيز الإهوانى : سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة — مجلة كلية الآداب ـ م ١٦ ج ١ مايو ١٩٥٤ ص ٩٥ ـ ١١٢ ، بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٣٧ ، ٢٤٦ ، ٢٥٢ ، ٢٦٦ ، ٢٧٧ ، ٣٧٦ ، Green, PP. 65 — 6

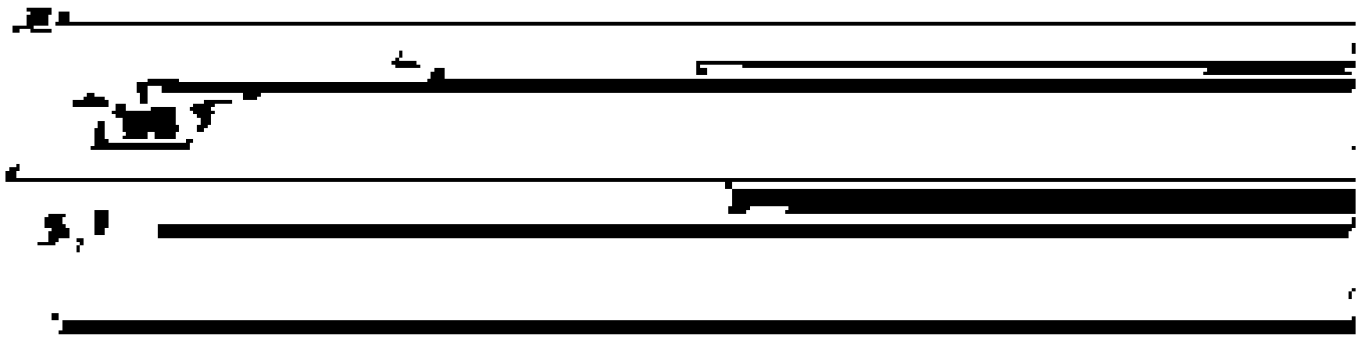

رسالة عبد الرحمن الأوسط

إلى الإمبراطور ثيوفلس (١)

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« أما بعد ، فقد بلغني كتابك ، تذكر فيه الذي كان عليه من مضى منكم لأولينا من المودة الصادقة ، وأنه قد دعاك ذلك إلى مكاتبتنا ، وإرسال قرطيوس (Kartiyus) رسولك إلينا لتجديد تلك المودة ، وترتيب تلك المصادقة ، وتسأل أن ينعقد فيما بيننا وبينك من ذلك ما نتمسك به ، ونتواصل له ، ونبعث رسلا من عندنا إليك ، ليعلموك بالذي نحن عليه من الرغبة فيما حضضت عليه ، ودعوت إليه ، لنثبت بقدومهم عليك مودتنا ، وتتم به صداقتنا .

وفهمنا ماذكرته من أمر الخليفة مروان رضي الله عنه وصلى عليه ،

---

(١) عن الحسن بن محمد بن مفرج (ت ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م) وعيسى بن أحمد الرازي (من مؤرخي القرن ١٠ م) نقله ليفي بروفنسال E. Lévi Provencel في كتابه "Islam D,occident"

ترجمة الدكتور السيد محمد عبد العزيز سالم . ص ١١٥ ـ ١١٨)

ومن وشائج قرابتنا منه ، وأسيت لما استلب من سلطانه ، واستبيح من حرمه ، واستحل من دمه ، وما كان من الفاجر أبي جعفر تربه الله ، وجراءته على الله ، واغتراره به ، وانتهاكه لمحارمه ، والله قد أحصى عليه ذلك ، فآسفه منه ، فهو لا محالة يجازيه جزاء سعيه .

ثم الذى ذكرته من فعل الخبيثين : ابن مراجل وابن ماردة أخيه بعده ، من إلحادهما فى نحلتها ، وإساءتهما لسيرتها ، ورغبتهما فى رعيتها ، وشدة وطأتها عليهم ، واستحلالها دماءهم وأموالهم ، وما ذكرت من حضور وقت زوال دولتهم ، وانقطاع مدة سلطانهم وتأذن الله برد دولتنا وسلطان آبائنا ، الذين نبأت عنهم الكتب ونطقت بهم الرسل وأوجب لهم الإجماع وحازه إليهم البرهان والذى حضضت عليه من الخروج إليهم ، وطلب الثأر منهم . ووعدته من نصرتك لنا ، بما ينصر الصديق صديقه ، ومن يعلم هواه فيه ومودته له ، وما عطفت عليه من أمر أبي حفص ومن معه من جالية بلدنا ، وغلبتهم على ما غلبوا عليه من بلدك وخضوعهم لابن ماردة ، ودخولهم فى طاعته ، وما سألت من أهل الإنكار لذلك والأنفة منه ، وحكيت من أمراء أفريقية فى نزعهم عن ابن ماردة وخلافهم عليه ، واستثقالهم لدولته ، وكل ما حكيت من ذلك وقصصته فى كتابك ، فقد قرأناه وفهمناه .

وأما ما رغبت من مودتنا ، وأحببته من مصادقتنا ، وأردت تجديده وتوصيله والتمسك به وتوثيقه ، بما كان عليه أولوك لأولينا ، فقد رغبنا منك فى مثل الذى ذكرته من حرصك على مواصلتنا ، وأن نتمسك

من ذلك ، بما كان عليه سلفنا ، وما لم يزل من كان قبلنا من الملوك يتمسكون به ، ويتحاضون عليه ، ويحفظه بعض لبعض ، ويشدون أيديهم به .

وأما ما ذكرت من أمر الخليفة مروان بن محمد رحمه الله ، فإن الله تعالى أحب أن يكرمه ، بما انتهك من حرمته ، ونكث من بيعته ، ويسوقه إلى رحمته ، وأن يشق بذلك من ركبه منه ، ويخزيه ويعذبه عليه .

وأما ما كان عليه الفاجر أبو جعفر من تعذيبه العباد وظلمه وجرأته على الله ، وانتهاكه لمحارمه فإن الله قد أخذه بذنبه واستدركه ببغيه ، وصيره من عذابه ونكاله إلى مالا انقطاع له ولا تخلص منه ، جزاء بما اجترح ، وكذلك حكم الله فى أهل معصيته ، وأولى الاجتراء والافتراء عليه .

وأما ما ذكرت من أمر الخبيث ابن ماردة ، وحضضت عليه من الخروج إلى ما قلته وذكرته من تقارب انقطاع دولته ودولة أهله ، وزوال سلطانهم ، وما حضر من وقت رجوع دولتنا ، وأزف من حين ارتجاع سلطاننا ، فإننا نرجو فى ذلك عادة الله عندنا ، ونستنجز موعده إيانا ، ونمترى حسن بلائه لدينا بما جمع لنا من طاعة من قبلنا ، من أهل شامنا وأندلسنا وأجنادنا وكورنا وثغورنا ، وما لم نزل نسمع ونعترف ، أن النقمة تنزل بهم ، والدائرة تحل عليهم من أهل المغرب ، بنا وعلى أيدينا ، فيقطع الله دابرهم ، ويستأصل شأفتهم ، إن شاء الله تعالى .

وأما ما ذكرت من أمر أبى حفص الأندلسى ، ومن صار معه من أهل بلدنا ، فى خضوعهم لابن ماردة ، ودخولهم فى طاعته ، وما سألت من

النظر فى أمورهم ، والإنكار لفعلهم ، فإنه لم ينزع إليه منهم إلا سفلتهم وسوادهم وفسقتهم ، وليسوا فى بلدنا ولا برتبتنا فنغير عليهم ، ونكفيك مؤنتهم ، وإنما اضطروا إلى الدخول فى طاعة ابن ماردة ، لما منهم من بلاده ، ودنو ناحيتهم من ناحيته ، ولم نكن نحسبك تعجز عنهم ، ولا تصعب عن نكايتهم ، ولا تتوقف عن إخراجهم عما تطرقوه من بلدك ، وإذ ترى مكانهم به من موضعك ، وإن الله بحوله وقوته وفضله ومنته رد إلينا سلطاننا بالمشرق ، وما كان تحت أيدى آبائنا منه ، نظرنا فى ذلك بما فيه صلاح لنا ولك ، واستقامة لطاعتنا وطاعتك ، وعرفنا الذى يكون من معونتك على ما دعوت إليه ، وحضضت عليه بما يعرفه الصديق لصديقه ، وذو المودة لأهل مودته ، ولم يضع لك عندنا ما رعيته من حقنا وقمت فيه من حفظنا .

وقد أدخلنا رسولك قرطيوس علينا ، وكشفناه على الذى أوصيت به إلينا ، وعن كل ما يجب لصديق أن يعرفه من حال صديقه ، ووجهنا إليك بكتابنا هذا رسولين من صالحى من قبلنا ، فاكتب إلينا مفهما بالذى أنت عليه من الأمر الذى كتبت به إلينا ، والذى يجب عليك من سائر خبرك ، ومتعة عافيتك ، لننظر فيما يتصرفان به من عندك على حسب ما يأتينا به من عندك ، إن شاء الله » .

استقبال الإمبراطور البيزنطى ثيوفلس

لسفارة عبد الرحمن الأوسط

وأخبار يحيى الغزال

٨٣٩ / ٨٤٠ م (١)

كان الشاعر الأندلسى الجيانى يحيى بن الحكم الملقب بالغزال ، أحد الرسولين اللذين أوفدهما عبد الرحمن الأوسط إلى الإمبراطور ثيوفلس فى بيزنطة ، وخرج الغزال مع رفيقه وسميه يحيى ، ومعهما الترجمان اليونانى من ميناء مرسية فى تدمير ، وتعرض فى البحر للعواصف، حتى بلغ القسطنطينية فى نهاية الأمر .

وعند وصول الوفد الإسلامى إلى العاصمة البيزنطية ، كلف الإمبراطور موظفاً خاصاً ، هو مقدم السفراء ، بتعريف رجال الوفد بآداب البلاط البيزنطى ، ثم دعى الغزال لمقابلة ثيوفلس .

اشترط الغزال ألا يسجدا له ، وألا يخرجهما الإمبراطور عن شىء

---

(١) عن ابن حيان : المقتبس ، ليفى (الترجمة ص ١٠٥ ومايليها) أبو الخطاب ابن دحية الكلبي توفى بالقاهرة ١٢٣٥ م ، المطرب فى أشعار أهل المغرب .

من سلتهما ، فأجابهما إلى ذلك ، فلما مشيا إليه قعد لهما فى أحسن هيئة ، وأمر بالمدخل الذى يفضى إليه ، فضيق حتى لا يدخل إليه أحد إلا راكعا ، فلما وصل إليه ، جلس إلى الأرض ، وقدم رجليه وزحف على إليته زحفة ، فلما جاز الباب ، استوى واقفا ، والملك قد أعد له ، وأحفل فى السلاح والزينة الكاملة ، فما هاله ولا ذعره ، بل قام ماثلا بين يديه(١) .

ولم يملك ثيوفلس إخفاء ابتسامة إعجاب به قائلا لرجالات دولته المحيطين به : كان الحكماء على حق فى قولهم ، إن من شخصية الرسول يعرف سيده ، إن هذا الأندلسى حكيم من حكماء القوم ، وداهية من دهاتهم .

(قصة الكأس ص ١٠٦ — ١٠٧ ليفى : الترجمة) وحدث مرة أن طلب الغزال وهو فى حضرة الإمبراطور ماء ليشرب ، فأحضروا له كأسا من الذهب المزدان بالأحجار الكريمة ، فلما شرب ، سكب الماء الذى بقى فى الكأس على الأرض وأخفى الكأس فى كم عباءته وسأل الإمبراطور فى ذلك ما لا يليق وصرح به على لسان ترجمانه ، فكان رد الغزال :

إن أمراءنا الذين تبغون صداقتهم ، قد اعتادوا عندما يطلب أحد السفراء أن يشرب فى حضرتهم ، أن يطلبوا له كأسا ثمينة ، يمكنه الاحتفاظ بها بعد شربه منها ، فإذا كانت عادة سادتى هذه غير متبعة لديكم ، فإنى مستعد

---

(١) عن المطرب لابن دحية الكلبي :

يحيى بن حكم البكرى الجيانى الملقب بالغزال لجماله ، كان حكيم الأندلس وشاعرها وعرافها عمر ٩٤ سنة وعاصر خمسة من خلفاء بنى أمية بالأندلس أولهم عبد الرحمن بن معاوية وآخرهم الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ، وتوفى حوالى عام ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م

لإعادة كأسكم إليكم ، وهم السفير بإخراجها من كمه ، إلا أن ثيوفلس بادر فأشار إليه بالاحتفاظ بها (ليفى الترجمة ص ١٠٦ — ١٠٧) .

ولم يلبث الغزال أن ظفر بإعجاب الإمبراطورة(١) ، وحدث أن كان الغزال يوما جالسا عند الإمبراطور ، وإذا بزوجة الملك قد خرجت وعليها زينتها ، وهى كالشمس الطالعة حسنا ، فجعل الغزال لا يميل طرفه عنها ، وجعل الملك يحدثه وهولاه عن حديثه فأنكر ذلك عليه ، وأمر الترجمان بسؤاله ، فقال له : عرفه أنى قد بهرنى من حسن هذه الملكة ما قطعنى عن حديثه ، فإنى لم أر قط مثلها ، وأخذ فى وصفها والتعجب من جمالها وأنها شوقته إلى الحور العين ، فلما ذكر الترجمان ذلك للملك ، تزايدت حظوته عنده ، وسرت الملكة بقوله ، وأمرت الترجمان أن يسأله عن السبب الذى دعا المسلمين إلى الختان ، وتجشم المكروه فيه ، وتغيير خلق الله ، مع خلوه من الفائدة ، فقال للترجمان : عرفها أن فيه أكبر فائدة ، وذلك أن الغصن إذا زبر قوى واشتد وغلظ ، وما دام لا يفعل به ذلك ، لا يزال رقيقا ضعيفا ، فضحكت وفطنت لتعريفه(٢) » .

ويقال إن الإمبراطورة زارت الغزال فى صحبة ابنها الطفل ميشيل وذلك فى القصر الذى خصص لإقامة الوفد الأندلسى ، وسماه ابن حيان باسمه « أكاديمية من مرمر » ، وأحضرت معها نبيذاً ، وطلبت منه

---

(١) زوجة الإمبراطور هى ثيودورا Theodora المعبر عنها فى الروايات العربية بكلمة تود أونود تصحيفا (ليفى الترجمة ص ١٠٧)

(٢) عن ابن حيان : المقتبس ، نفح الطيب حـ ١ ص ٤٤٤

أن يشرب مع ابنها ، فأجاب بأن ذلك لا يجوز فى دينه(١) ، وكان قبلا قد اعتذر عن عدم الشرب بنفس الحجة للإمبراطور ثيوفلس (٢) ، وقد نظم الغزال فى مناسبة هذه الزيارة قصيدة تتمثل فيها بعض الصور الشعرية الرائعة لهذا العصر ، يقول فيها :

وأغيد لين الأعطاف رخص كحيل الطرف ذى عنق طويل
ترى ماء الشباب بوجنتيه يلوح كرونق السيف الصقيل
من أبناء الغطارف قيصرى الـ ـعمومة حين ينسب والخؤول
كأن أديمـــه نصفا بنصف من الذهب الدلاص أو الوذيل
أتى يوما إلى بزق خمر شمول الريح كالمسك الفتيل
ليشربها معى ويبيت عندى فيثبت بيننـا ود الخليـل
وجاءت أمـه معه فكانا كأم الخشف(٣) والرشأ الكحيل
توصينى به وتقول أخشى عليه البرد فى الليل الطويل
فقلت حمـاقة منى ونوكا فديتك لست من أهل الشمول
فأية غرة سبحان ربى لو انى كنت من أهل القفول(٤)

. . .

(١) المغرب حـ ٢ ص ٥٧ ـ ٥٨

(٢) النفح حـ ١ ص ٤٤٤

(٣) الخشف هو ولد الظبى

(٤) عن ليفى الترجمة ص ١٠٨ ـ ١١٠ المغرب حـ ١ ص ٥٧ ـ ٥

عاد الغزال عن طريق «سانت ياجو» دى كومبوستلا أو شانت ياقب(١) وذلك لأن الغزال تلقى أمراً من عبد الرحمن الأوسط ، هو ورفيقه عندما كانا فى القسطنطينية ، لكى يتوجها إلى شمال أوربا بعد عودتهما من لدن ثيوفلس ، والظاهر أنهما قاما بهذه الرحلة التى ركبا فيها الأطلنطى وعادا إلى أسبانيا بعد ذلك بعشرين شهرا (ليفى الترجمة ص ١١٢) .

---

(١) ليفى الترجمة ص ١١٣ ـ ١١٤

استقبال الناصر لسفراء الإمبراطور البيزنطى[١]

ربيع أول ٣٣٨ هـ / ٩٤٩ م

عن ابن حيان : « إن ملك الناصر بالأندلس كان فى غاية الضخامة ورفعة الشأن ، وهادته الروم وازدلفت إليه ، تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر ، ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم ، إلا وفدت عليه ، خاضعة راغبة ، وانصرفت عنه راضية ، ومن جملتهم صاحب القسطنطينية العظمى ، فإنه هاداه ورغب فى موادعته (٢) » .

وصلت سفارة الإمبراطور البيزنطى فى صفر سنة ٣٣٨ هـ(٣) ، وتأهب الناصر لورودهم ، وأمر أن يتلقوا أعظم تلق وأفخمه ، وأحسن قبول وأكرمه ، وأخرج إلى لقائهم ببجاية ، يحيى بن محمد بن الليث وغيره لخدمة أسباب الطريق ، فلما صاروا بأقرب المحلات من قرطبة ، خرج إلى لقائهم

---

(١) نفح الطيب حـ١ ص ١٧١

(٢) عن نفح الطيب حـ ١ ص ١٧١ — ١٧٢

(٣) هناك اختلاف فى تاريخ وصول سفارة بيزنطة ، فذكر ابن خلدون أنها وقعت سنة ٣٣٦ هـ ، بينما أرجع ابن عذارى تاريخها إلى عام ٣٣٨ هـ . وكذلك المقرى ، وقد أشار ابن عذارى إلى هذه السفارة فى موضعين مختلفى التاريخ (حـ ٢ ص ٣١٩ ، ٣٢٢)

القواد فى العدد والعدة والتعبية ، فتلقوهم قائداً بعد قائد، وكمل اختصاصهم بعد ذلك ، بأن أخرج إليهم الفتيين الكبيرين الخصيين : ياسراً وتماما ، إبلاغاً فى الاحتفال بهم ، فلقياهم بعد القواد ، فاستبان لهم بخروج الفتيين إليهم ، بسط الناصر وإكرامه ، لأن الفتيان حينئذ ، هم عظماء الدولة ، لأنهم أصحاب الخلوة مع الناصر وحرمه ، وبيدهم القصر السلطانى ، وأنزلوا بمنيـــة ولى العهد الحكم ، المنسوبة إلى نصير بعدوة قرطبة فى الربض ، ومنعوا من لقاء الخاصة والعامة جملة ، ومن ملابسة الناس طراً ، ورتب لحجابتهم رجالا تخيروا من الموالى ووجوه الحشم ، فصيروا على باب قصر هذه المنية ستة عشر رجلا لأربع دول ، لكل دولة أربعة منهم (١) .

« ورحل الناصر لدين الله من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة ، لدخول وفود الروم عليه ، فقعد لهم يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من السنة المذكورة ، فى بهو المجلس الزاهر قعوداً حسناً نبيلا .

« وقعد عن يمينه ولى العهد من بنيه : الحكم ، ثم عبد الله ، ثم عبد العزيز ثم الأصبغ ثم مروان . وقعد عن يساره : المنذر ثم عبد الجبار ثم سليمان ، وتخلف عبد الملك ، لأنه كان عليلا لم يطق الحضور .

« وحضر الوزراء على مراتبهم يميناً وشمالا . ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالى والوكلاء وغيرهم .

---

(١) المقصود بذلك وفود الدول الأخرى التى وصلت فى ذلك الوقت وعقد الناصر هذا المجلس لاستقبال الجميع ، غير أن أهم وفد كان فى ذلك الوقت هو الوفد البيزنطى ومن أجله « قعد هذا المقعد الشهير » راجع ابن عذارى حـ ٢ ص ٣١٩ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٣٧ .

« وقد بسط صحن الدار أجمع بعتاق البسط وكرائم الدرانك، وظللت أبواب الدار وحناياها بظل الديباج ورفيع الستور .

« فوصل رسل ملك الروم حائرين مما رأوه من بهجة الملك وفخامة السلطان ، ودفعوا كتاب ملكهم صاحب قسطنطينية العظمى : قسطنطين ابن ليون ، وهو فى رق مصبوغ لوناً سماوياً ، مكتوباً بالذهب بالخط الإغريقى ، وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة أيضاً ، مكتوبة بفضة بخط إغريقى أيضاً ، فيها وصف هديته التى أرسل بها وعددها ، وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل ، على الوجه الواحد منه صورة المسيح وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده . وكان الكتاب بداخل درج فضة منقوش على غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين الملك ، معمولة من الزجاج الملون البديع ، وكان الدرج داخل جعبة ملبسة بالديباج . وكان فى ترجمته عنوان الكتاب فى سطر منه : قسطنطين ورمانين المؤمنان بالمسيح ، الملكان العظيمان ملكا الروم ، وفى سطر آخر : العظيم الاستحقاق الفخر الشريف النسب ، عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس ، أطال الله بقاءه .

« ولما احتفل الناصر لدين الله هذا الاحتفال ، أحب أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه لتذكر جلالة مقعده وعظيم سلطانه وتصف ما تهيأ من توطيد الخلافة فى دولته ».

. . .

تعاقب بعض الخطباء ، فلم يتهيأ لهم القول ، حتى قام منذر بن سعيد (من ذاته) فأجاد .

خطبة منذر بن سعيد البلوطى

٣٣٨ هـ / ٩٤٩ م(١)

« أما بعد حمد الله والثناء عليه والتعداد لآلائه والشكر لنعمائه ، والصلاة والسلام على محمد صفيه وخاتم أنبيائه ، فإن لكل حادثة مقاماً ، ولكل مقام مقال ، وليس بعد الحق إلا الضلال ، وإنى قد قمت فى مقام كريم ، بين يدى ملك عظيم ، فأصغوا إلى معشر الملأ بأسماعكم ، وأتقنوا عنى بأفئدتكم » .

« إن من الحق أن يقال للمحق صدقت ، وللمبطل كذبت ، وإن الجليل تعالى فى سمائه ، وتقدس بصفاته وأسمائه أمر كليمه موسى صلى الله على نبينا وعليه وعلى جميع أنبيائه ، أن يذكر قومه بأيام الله جل وعز عندهم . وفيه وفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة . وإنى أذكركم بأيام الله عندكم . وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التى لمت شعثكم وآمنت بربكم . ورفعت قوتكم . بعد أن كنتم قليلا فكثركم . مستضعفين فقواكم ومستذلين فنصركم . ولاه الله رعايتكم وأسند إليه إمامتكم أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق وأحاطت بكم شعل النفاق . حتى صرتم فى مثل

---

(١) عن نفح الطيب حـ ١ ص ١٧٢ ـ ١٧٣

حدقة البعير من ضيق الحال ونكد العيش والتغيير ، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء ، وانتقلتم بيمن سياسته إلى تمهيد كنف العافية بعد استيطان البلاء ، أنشدكم بالله معاشر الملأ : ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها ؟ والسبل مخوفة فأمنها ؟ والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها ؟ ألم تكن البلاد خراباً فعمرها ؟ وثغور المسلمين مهتضمة فحماها ونصرها ؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته ، وتلافيه جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامته ، حتى أذهب الله عنكم غيظكم ، وشفى صدوركم وصرتم يدا على عدوكم ، بعد أن كان بأسكم بينكم ، فأنشدكم الله ، ألم تكن خلافته قفل الفتنة بعد انطلاقها من عقالها ؟ ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها ، ولم يكل ذلك إلى القواد والأجناد ؟ حتى باشره بالقوة والمهجة والأولاد ، واعتزل النسوان وهجر الأوطان ، ورفض الدعة وهى محبوبة وترك الركون إلى الراحة وهى مطلوبة ، بطوية صحيحة وعزيمة صريحة ، وبصيرة ثابتة نافذة ثاقبة ، وريح هابة غالبة ، ونصرة من الله واقعة واجبة ، وسلطان قاهر ، وجد ظاهر ، وسيف منصور تحت عدل مشهور ، متحملا للنصب ، مستقلا لما ناله فى جانب الله من التعب ، حتى لانت الأحوال بعد شدتها ، وانكسرت شوكة الفتنة عند حدتها ، ولم يبق لها غارب إلا جبه ، ولا نجح لأهلها قرن إلا جده ، فأصبحتم بنعمة الله إخواناً ، وبلم أمير المؤمنين اشعثكم على أعدائه أعواناً ، حتى توافرت لديكم الفتوحات ، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات ، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم ، وآمال الأقصين والأدنين مستخدمة إليه وإليكم ، يأتون من كل فج عميق وبلد سحيق ، لأخذ حبل بينه وبينكم جملة وتفصيلا ، ليقضى الله أمراً كان مفعولا ، ولن يخلف الله وعده ولهذا الأمر ما بعده ،

وتلك أسباب ظاهرة بادية تدل على أمور باطنة خافية ، وليلها قائم ، وجفنها غير نائم ، وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم (الآية . . .) .

وليس فى تصديق ما وعد الله ارتياب ؛ ولكل نبأ مستقر ولكل أجل كتاب فاحمدوا الله أيها الناس على آلائه، وأسألوه المزيد من نعمائه، فقد أصبحتم بين خلافة أمير المؤمنين ؛ أيده الله بالعصمة والسداد ، وألهمه خالص التوفيق إلى سبيل الرشاد ، أحسن الناس حالا ، وأنعمهم بالا ، وأعزهم قراراً وأمنعهم داراً ؛ وأكثفهم جمعا وأجمعهم صنعاً ، لاتهاجون ولا تذادون ، وأنتم بحمد الله على أعدائكم ظاهرون ؛ فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم والتزام الطاعة لخليفتكم وابن عم نبيكم صلى الله عليه وسلم ؛ فإن من نزع يدا من الطاعة ، وسعى فى تفريق الجماعة ، ومرق من الدين ، فقد خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين ؛ وقد علمتم أن فى التعلق بعصمتها ، والتمسك بعروتها ؛ حفظ الأموال وحقن الدماء وصلاح الخاصة والدهماء ، وأن بقوام الطاعة تقام الحـــدود وتوفى العهود ، وبها وصلت الأرحام ، ووضحت الأحـــكام ، وبها سد الله الخلل وأمن السبل ووطأ الأكناف ورفع الاختلاف وبها طاب لكم القرار واطمأنت بكم الدار ، فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به . فإنه تبارك وتعالى يقول : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم (الآية . . .) ، وقد علمتم ما أحاط بكم فى جزيرتكم هذه من ضروب المشركين وصنوف الملحدين ، الساعين فى شق عصاكم وتفريق ملاكم، الآخذين فى مخاذلة دينكم وهتك حريمكم وتوهين

دعوة نبيكم صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين والمرسلين . أقول قولى هذا ، وأختم بالحمد لله رب العالمين ، مستغفراً الله الغفور الرحيم فهو خير الغافرين » .

. . . . .

[علق ابن سعيد فى المغرب (١) ، على هذه الخطبة والمناسبة التى قيلت فيها وأثرها على سفراء الروم وعلى كبير السفراء بصفة خاصة فقال : فصاب العلج وغاب على قلبه ، وقال هذا كبير القوم ، أو كبش القوم] (النفح حـ ١ ص ١٧٤)

---

(١) انظر المغرب فى حال المغرب (نشر وتحقيق الدكتور شوقى ضيف) حـ ١ ص ٣٢٤ حـ ٢ ص ٥٧ — ٥٨ .

أمراء مملكة أشتوريا المسيحية

خلال القرنين الثامن والتاسع الميلاديين

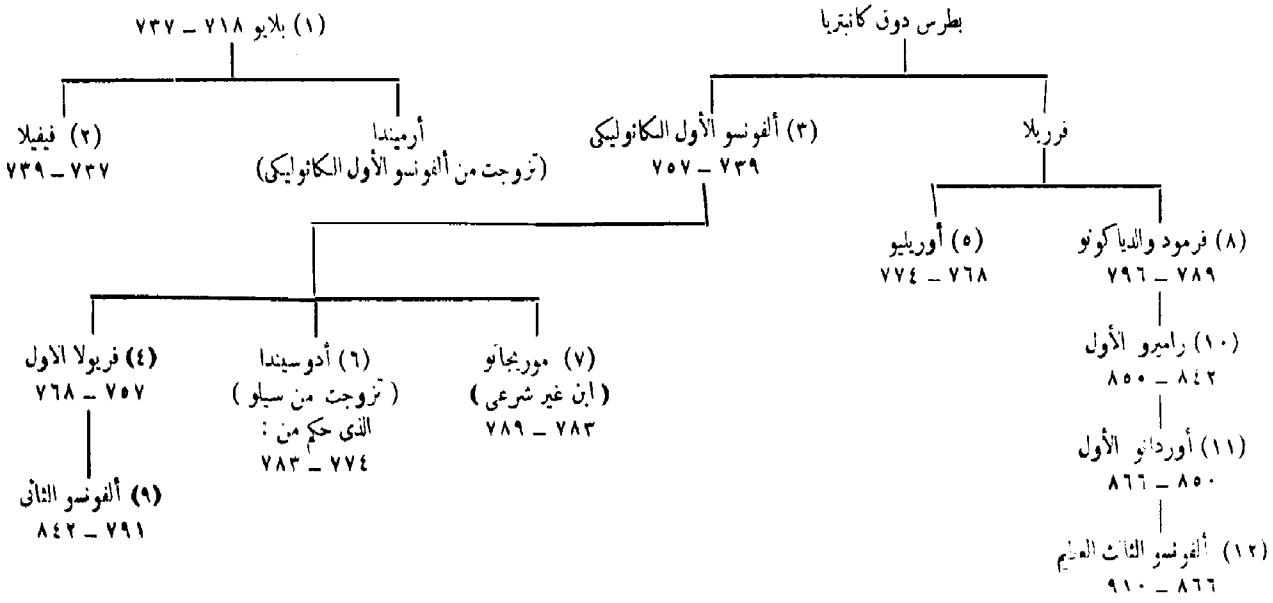

مصادر البحث

ا – المصادر العربية . ب – المصادر الأجنبية . حـ – كلمة عن المراجع التى تناولت غزوات العرب الأخيرة فى بروفانس ومنطقة الألب وماوالاها .

١ — ابن الأثير (على بن أحمد بن أبى الكرم ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٨ م)

الكامل فى التاريخ (مصر ١٢٧٤ هـ) .

٢ — ابن الخطيب (لسان الدين بن الخطيب السلمانى)

كتاب أعمال الأعلام فى من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام (ألفه فى الفترة بين ٧٧٤ ، ٧٧٦ هـ / ١٣٦٢ — ١٣٦٤ م) حققه ونشره ا. ليفى بروفنسال — بيروت ١٩٥٦ .

٣ — ابن القوطية (أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم بن عيسى بن مزاحم الأندلسى الأشبيلى الأصل القرطبى المولد. وقد نسب إلى جدته القوطية ، وهى ابنة « وبه » Wamba ابن غيطشة Wetiza ملك أسبانيا القوطى) .

تاريخ افتتاح الأندلس (نشره وترجمه إلى الأسبانية د. ج. ريبرا Don Julian Ribera — مدريد ١٩٢٦)

٤ — ابن تغرى بردى (أبو المحاسن يوسف ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م)

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (طبعة دار الكتب المصرية) .

٥ — ابن حزم (أبو محمد على بن أحمد ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م)

الفصل فى الملل والأهواء والنحل (وبهامشه الشهرستانى: الملل والنحل) (القاهرة ١٣١٧ هـ) .

٦ — ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النيصبى)

كتاب صورة الأرض .

(نشره ج. هـ. كرامرز J.H. Kramers — ليدن ١٩٣٨)

٧ — ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف ت ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م)

كتاب المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس .

(نشره الأب ملشور Melchor — باريس ١٩٣٧) .

٨ — ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م)

تاريخه (مصر ١٢٨٤ هـ) .

٩ — ابن طباطبا (محمد بن على المعروف بابن الطقطقى)

الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية (مصر ١٣١٩ هـ) .

١٠ — ابن عبد الحكم (أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم ت ٢١٤ هـ / ٨٢٩ م)

فتوح مصر والمغرب (تحقيق عبد المنعم عامر — مصر ١٩٦١ م) .

١١ — ابن عذارى (أبو العباس بن عذارى المراكشى)

البيان المغرب فى أخبار المغرب (بيروت ١٩٥٠) .

١٢ — أبو الفداء (السلطان الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل الأيوبى صاحب حماه ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م)

تقويم البلدان (نشره م . رينو M. Reinaud ، م . ج . دوسلين Le Bon Moc Guckin De Slane — ليدن ١٨٤٠ م) .

١٣ — أحمد أمين

١ — فجر الإسلام (القاهرة ١٩٢٨)

٢ — ضحى الإسلام (القاهرة ١٩٣٥)

١٤ — (أخبار مجموعة) فى فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم . ج ١ مجريط ١٨٦٧) . وقد ترجم هذا الجزء إلى الأسبانية الدون أميليو لافونت Don Emilio Lafunte

١٥ — أرسلان (الأمير شكيب)

١ — تاريخ غزوات العرب (مترجم) — مصر ١٣٥٢ هـ

٢ — الحلل السندسية فى الأخبار الأندلسية (فاسى ١٩٣٦ م)

١٦ — أرشيبالد (Archibald L. Lewis)

القوى البحرية والتجارة فى حوض البحر المتوسط

(ترجمة أحمد محمد عيسى ومراجعة وتقديم محمد شفيق غربال — مصر ١٩٦٠) .

١٧ — أرنولد (ناشر) Sir Thomas Arnold ، ألفرد جيوم A. Guillaum

تراث الإسلام (ترجمة لجنة النشر للجامعيين) .

١٨ — الاصطخرى (أبو إسحق إبراهيم بن محمد الفارسى الاصطخرى المعروف بالكرجى — توفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى) المسالك والممالك .

(تحقيق الدكتور محمد جابر الحينى ومراجعة محمد شفيق غربال مصر ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م) .

١٩ — الأصفهانى (أبو الفرج ت ٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م)

الأغانى (القاهرة ١٢٨٥ هـ) .

٢٠ — البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م)

فتوح البلدان (مصر ١٣١٩ هـ) .

٢١ — التونسى (السيد خير الدين)

كتاب أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك (تونس ١٢٨٤ هـ) .

٢٢ — الحميرى (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم — جمع كتابه عام ٨٦٦ هـ / ١٤٦٢ م) صفة جزيرة الأندلس (منتخبه من كتاب : الروض المعطار — فى خبر الأمصار) تحقيق ونشر ليفى بروفنسال — مصر ١٩٣٧ م) .

٢٣ — الدورى (الدكتور عبد العزيز)
العصر العباسى الأول (دراسة فى التـــاريخ السياسى والإدارى والمالى) .
منشورات دار المعلمين العالية — بغداد ١٣٦٣هـ/١٩٤٥م

٢٤ — السخاوى (شمس الدين محمد ت ٩٠٢ هـ /١٤٩٦ م): التبر المسبوك (مصر ١٨٩٦) .

٢٥ — السيوطى (عبد الرحمن بن أبى بكر ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) : غزوات قبرص ورودس (فيينا ١٨٨٤ — له ترجمة ألمانية)

٢٦ — الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م)
تاريخ الأمم والملوك (مصر ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٩ م) .

٢٧ — العبادى (المرحوم الأستاذ عبد الحميد)
المجمل فى تاريخ الأندلس — التاريخ .

٢٨ — العريى (الدكتور السيد الباز)
الدولة البيزنطية (مصر ١٩٦٠ م)

٢٩ — العنيسى (طوبيا العنيسى الحلبى)

كتاب تفسير الألفاظ الدخيلة فى اللغة العربية (مصر ١٩٣٢)

٣٠ — القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م)

صبح الأعشى فى صناعة الإنشا (نشر دار الكتب المصرية)

٣١ — المقرى (أحمد بن على التلمسانى ت ١٠٤١ هـ / ١٦٣٣ م)

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (مصر ١٣٠٢ هـ)

٣٢ — المقريزى (تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م)

١ — السلوك لمعرفة دول الملوك (تحقيق ونشر الدكتور زيادة — بدأه من عام ١٩٣٦ م) .

٢ — المقفى (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٣٧٢ تاريخ) .

٣٣ — الناصرى (أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى)

كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (الدار البيضاء ١٩٥٥ م) .

٣٤ — اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن واضح ت ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م) .

١ — تاريخه (ليدن ١٨٨٣) .

٢ — البلدان (ليدن ١٨٩٢) .

٣٥ — أومان (Oman)

الإمبراطورية البيزنطية (ترجمة الدكتور طه بدر — مصر ١٩٥٣) .

٣٦ — باركر (Barker)

الحروب الصليبية (ترجمة الدكتور الباز العرينى — مصر ١٩٦٠

٣٧ — بينز (Baynes)

الإمبراطورية البيزنطية (ترجمة الدكتور حسين مؤنس وزميله — مصر ١٩٥٠

٣٨ — جواد على :

تاريخ العرب قبل الإسلام .

٣٩ — جورجى زيدان :

العرب قبل الإسلام (مراجعة وتعليق مؤنس) .

٤٠ — حتى (فيليب)

تاريخ العرب (ترجمة محمد مبروك نافع) .

٤١ — ديفيز (H. W. Davis)

شارلمان (ترجمة الدكتور الباز العرينى — مصر ١٩٥٥)

٤٢ — رستم (الدكتور أسد) .

الروم (فى سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم مع العرب — بيروت ١٩٥٥) .

٤٣ — زامباور (Zambaur)

معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى (ترجمة الدكتور زكى محمد حسن والدكتور حسن محمود والدكتورة سيدة كاشف وآخرين) مصر ١٩٥١ .

٤٤ — زيادة (الدكتور محمد مصطفى) :

المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس (ترجمة الشيتى ومنصور ـ مجلة الجيش ١٩٤٦) .

٤٥ — عبد الوهاب (حسن حسنى)

قوصرة (المجلة التاريخية المصرية م٢ عدد ٢ أكتوبر ١٩٤٩)

٤٦ — فروخ (عمر)

العرب والإسلام فى الحوض الغربى من البحر الأبيض (من فتح المغرب والأندلس إلى آخر عصر الولاة — بيروت ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٩ م) .

٤٧ — طرخان (الدكتور إبراهيم على)

١ — الحركة اللا إيقونية فى الدولة البيزنطية (مصر ١٩٥٦)

٢ — دولة القوط الغربيين (مصر ١٩٥٨)

٣ — تاكيتوس والشعوب الجرمانية (مصر ١٩٥٩)

٤ — نهاية الإمبراطورية الرومانية فى الغرب (مجلة كلية الآداب .. جامعة القاهرة ـ العدد التذكارى م ٢٠ ـ مصر ١٩٦٢)

٥ — شمالى أفريقية والوندال (المجلة التاريخية ـ العدد التذكارى م ١١ مصر ١٩٦٣)

٦ — مصر فى عصر دولة الممالك الجراكسة (مصر ١٩٥٩)

٤٨ — فشر (H. Fisher)

تاريخ أوربا فى العصور الوسطى (ترجمة الدكتور زيادة والدكتور العريني — مصر ١٩٥٠) .

٤٩ — (كتاب مفاخر البربر) لمؤلف مجهول الاسم ، ألفه عام ٧١٢ هـ ونشره ليفى بروفنسال — الرباط ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٤ م .

٥٠ — كرد على (محمد)

الإسلام والحضارة العربية (مصر ١٩٥٠) .

٥١ — كليليا (Clelia Sarnelli Cerqua)

مجاهد العامرى (قائد الأسطول العربى فى غربى البحر المتوسط فى القرن الخامس الهجرى — مصر ١٩٦١)

٥٢ — لوبون (G. Le Bou)

حضارة العرب (ترجمة عادل زعيتر — مصر ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م)

٥٣ — ليفى بروفنسال (Lévi Provencal)

الإسلام فى المغرب والأندلس (ترجمة الدكتور سالم وزميله ـ مجموعة الألف كتاب رقم ٨٩)

٥٤ — مؤنس (الدكتور حسين)

١ — فتح العرب للمغرب (مصر ١٩٤٧)

٢ — السيد القمبطور وعلاقاته بالمسلمين (المجلة التاريخية المصرية مايو ١٩٥٠ م ٣ ص ٣٧ - ٧٨) .

٣ — المسلمون فى حوض البحر الأبيض المتوسط إلى الحروب الصليبية (المجلة التاريخية المصرية م ٤ - ١٩٥١ ص ٤٥ - ١٦٩)

٤ ـ فجر الأندلس (مصر ١٩٥٩)

٥٥ — ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م) .

١ ـ معجم البلدان (مصر ١٣٢٣ هـ / ١٩٠٦ م) .

٢ ـ مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع (وهو تلخيص لمعجم البلدان) .

٣ ـ معجم الأدباء .

٥٦ — نصحى (الدكتور إبراهيم) .

تاريخ مصر فى عصر البطالمة (مصر ١٩٤٦) .

— ب —

1 — Albert de Circourt,

Histoire des Mores Mudejares et Des Morisques ou des Arabes D'Espagne (T, I, Paris, 1864)

2 — Bailly, A.,

1 — Bayzance (Paris, 1939)

2 — Les Grands Capétiens (1180 — 1328) (Paris, 1952)

3 — Barthold (in Encycl. of Islam)

الترجمة العربية ج ٣ مادة « باشقرد »

4 — Baynes, N. H., & Moss, H. St. L. B., (Edit.)
Byzantium (Oxf., 1948)

5 — Boissannades, P.,

Du Nouveau sur Le Chanson de Roland (Paris 1933)

6 — Bradley, H.,

The Goths, from the Earliest Times to the End of the Gothic Dominion in Spain (London, 1887)

7 — Brooke, Z. N.

A History of Europe (911 — 1198) (Lond., 1928)

8 — Bryce, J. V.,

The Holy Roman Empire (Lond., 1950)

9 — Bury, J.,

1 — History of the Later Roman Empire

2 — History of Greece. (Lond., 1931)

10— Calmette, J.,

Les Derniers Etapes du Moyen Age Français

11— (Camb. Med. H.)., Vols. III — IV — V.

12— Cartelliere, O.,

The Count of Burgundy (Studies in Hist. of Civilization) Lond., 1929

13— Cary, M.,

A History of Rome Down to the Reign of Constantine (Lond., 1954)

14— Ch - André, J.,

La Berbérie

15— Chew, H. M., & Latham, L. C.,

Europe in the Middle Ages (814 - 1494) (Lond., 1936)

16— Courcelle, O.,

Histoire Litteraire des Grandes Invasions Germaniques (Paris, 1948)

17— Davis, R. H. C.,

A History of Mediaeval Europe (Lond., 1958)

18— Deanesly M.,

A History of Early Mediaeval Europe (476 — 911)
Lond., 1956

19— De Marlès, M.,

Histoire de la Domination Des Arabes et Des Maures En Espagne et En Portugal (Paris, 1825)

20— Diehl, C. & Marçais, G.,

Le Monde Orientale De 395 a 1081 (H. G. I. III)
Paris, 1944

21 — Dill, S.,

Roman Society in the Last Century of the Western Empire (Lond., 1926).

22— Dozy, R.,

Histoire Des Musulmans D'Espagne (Leiden, 1932)

23— Dutaillis, P.,

The Feudal Monarchy in France & England (Lond., 1949)

24— (Encyclopedia Brittannica)

25— (Encyc. of Islam)

26— (Encycl. of Religion & Ethics)

27— Evans, J.,

Life in Mediaeval France (Oxf., 1925)

28— Eyre, E., (Rdit).

European Civilization, Its Origins & Development (Oxf., 1935)

29— Fichtenau, H.

The Carolingian Empire (Oxf., 1951).

30— Finlay, G.,

History of the Byzantine Empire (Edinb., 1856)

31— Foord, E.

The Byzantine Empire (Lond., 1911)

32— Freeman, E. A.,

Western Europe in the Eighth Century & Onward, (Lond., 1904)

33— Funk - Brentano, Fr.,

The National History of France (The Earliest Times, Lond., 1927)

34— Gibb, Sir H. A. R., Mohammedanism (New York, 1955)

35— Gibbon, E.,

Decline & Fall of the Roman Empire (Lond., 1893)

36— Goubert, P.,

Byzance avant L'Islam (Paris, 1951)

37— Green, V. H.,

Renaissance & Reformation (A Survey of European History between 1450 — 1660)

38— Greegoire, H.,

The Byzantine Church (In Byzantium, Ed. By Baynes & Moss)

39— Gregory of Tours,

The History of the Franko

(Translated by O. M. Dalton, 2 Vols., Lond., 1927)

40— Grousset, R..

L'Empire Du Levant (Paris, 1949)

41— Gsell. S.,

Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord.

42— Hall, H. R.,

The Ancient History of the Near East

43— Hallam, H.,

View of the State of Europe During the Middle Ages (Lond., 1914).

44— Halphen, L.,

1 — Charlemagne et L'Empire Carolingien (Paris, 1947)

2 — Les Barbares (Paris, 1948)

45— Hodgkin, T,.

Italy & Her Invaders (Oxf., 1892)

46— Hogben, S. J.,

The Muhammadan Emirates of Nigeria (Lond,, 1930)

47— Hubert, H.,

The Greatness & Decline of Celts (Lond,, 1934)

48— Hunt, W.,

History of Italy (Lond., 1878)

49— Ives, G. B.,

History of the Byzantine Empire (New York, 1954

50— Lane - Poole, S.

1— The Moors in Spain (Lond., 1887)

2— A History of Egypt in the Middle Age (Lond., 1925)

51— Lavesse, E. & Rambaud, A., (Edit),

Histoire Générale Du VI Siécle a Nos Jours (T. Premiere « Les Origines » 395 - 1095) (Paris, 1922)

52— Leclercq, D. H.,

L'Espagne Chrétienne (Paris, 1906)

53— Lévi - Provencal, E.,

1— L'Espagne Musulmane au Xeme Siecle (Paris. 1932)

2— Histoire De l'Espagne Musulmane (Paris 1950 - 1953)

54 – Levtchenko, M. V.,

Byzance Des Origines a 1453 (Paris 1949)

55— Lindsay, J.,

Byzantium into Europe (Lond., 1952)

56— Lot, F.,

Les Invasions Germaniques (Paris, 1935)

57— Martin, E. J.,

A History of the Iconoclastic Centroversy (London)

58— Massen G.,

Mediaeval France (London)

59— Milman. H. H..,

History of the Latin Christianity (Lond., 1872)

60— Moss, H. St., L. B.,

the Birth of the Middle Ages (Of.. 1943)

61— Mot t. G F. & Dee, H. M.

Middle Ages (New york, 1952).

62— Nöldke, T.,

The Scope & Influence of History (In Historians' History of the World, Vol. VIII). - (New York, 1926)

63— Oman, Ch.,

The Dark Ages (476 - 918) - (Lond., 1949)

64— Orton, P.,

Outline of Mediaeval History (Cambr. 1942)

65— Ostrogorsky, G..

History of the Byzantine State

(Translated by J. Hussey, (Oxf., 1956)

66— Painter, S.,

A History of the Middle Ages (New York, 1954)

67— Pirenne, H.,

1— A History of Europe (Lond., 1948)

2— Mohammad & Charlemagne (Lond., 1954)

68— Poupardin.

La Royaume de Bougogne (888 - 1038) (Paris. 1907)

69 - Reid. J. S.,

The Municipalities of the Roman Empire (Cambr.. 1918)

70— Risler, J. C.,

La Civilisation Arabe (Paris., 1955)

71— Rossi., E., Malta (Encycl. of Islam, Vol. III)

72— Rostovtseff. M.

The Social & Economic History of the Roman Empire Vol. I (Lond), 1957)

73— Runciman, S.,

1— Byzantine Civilization (Lond., 1948)

2— History of the Crusades (Cambr. 1954)

74— Salmon, E. T.,

A History of the Roman Empire (Lond., 1950)

75— Scott, S. P.,

History of the Moorish Empire in Europe (Lond., 1904)

76— Seignobos, C.,

L'Europe Feudale (A. G. T. II) (Paris 1925)

77— Sergeant, L.,

The Franko (Lond., 1898)

78— Sismondi, J. C. L.,

History of the Italian Republics in the Middle Ages (Translated by W. Boulting)

79— Soame, J.,

The Coast of the Barbary

80— Stephenson, C.,

Mediaeval History (Washington, 1943)

81— Stevens, C. E.,

Sidonius Appollinarius & His Age (Oxf., 1933)

82— Syme, R.,

The Northern Frontiers under Augustus (C. Med. H., Vol. I)

83— Thomson, J. O.,

History of the Ancient Geography (Cambr., 1948)

84— Vassiliev, P.

History of the Byzantine Empire (Madison, 1952)

85— Villari, P.,

The Barbarian Invasions of Italy (Translated by L.Villari)

Vol. I Lond., 1902)

86— Waern, C.,

Mediaeval Sicily (Lond., 1910)

87— Wahl, (In. H. G. T. 1)

88— Watts, A. E.,

Spain (Lond., 1803)

— ح —

من الملاحظ خلو المراجع العربية المتداولة كلها تقريبا ، من الإشارة إلى غزوات العرب الأخيرة فى بروفانس ومنطقة الألب وما والاها ، سوى ماذكره الأصطخرى وابن حوقل وياقوت ، ولذلك فإن أهم مايرجع إليه حتى الآن ، فيما أعلم ، هو المراجع الأجنبية ، ولاسيما ماكتبه الفرنسيون والإيطاليون والألمان . ومن العجيب حقا ، أن كتاب العرب فى أسبانيا الإسلامية ، لم يتناولوا النشاط الإسلامى فى تلك المناطق ، مع العلم بأن أسبانيا الإسلامية ، زمن خلفاء قرطبة ، كانت الحامية الرسمية للمسلمين فى بروفانس . ولعل هناك من المراجع العربية التى لم تصل إلينا ، أو فقدت خلال حركة الاسترداد المسيحى ، وهى الحركة التى اشتعل أوارها فى أسبانيا الإسلامية .

ولقد بذل المرحوم المحقق شكيب أرسلان . جهداً مشكورا ، حين تعرض لهذا الموضوع ، وبذل أقصى ما يستطيع العالم المحقق الوطنى أن يبذل فى سبيل الوصول إلى الحقيقة ، إذ قام بما لم يقم به إلا القلائل ، يوم سافر وشهد ما استطاع أن يشهده من الآثار العربية الإسلامية فى الأرض الأوربية ، وسأل وناقش واستقصى ، فأدى بذلك خدمة علمية باقية للتاريخ العربى الإسلامى فى العصور الوسطى .

ترجم شكيب أرسلان بحثين كبيرين هامين ظهرا فى هذا الموضوع فى القرن التاسع عشر .

الأول : المستشرق الفرنسى المحقق رينو (١٧٩٥ - ١٨٦٧ م) وهو من مواليد عصر الثورة الفرنسية ، والعصر البونابرتى ، ومات قبيل الحرب السبعينية التى أذلت فيها فرنسا ، كما عاصر حفر قناة السويس وحرب القرم وحركة البعث الإيطالى ، وعظمة الاتحاد الألمانى زمن بسمارك ، عاش رينو فى عصر الحوادث الكبرى فى التاريخ العالمى .

وقد نشر كتابه عام ١٨٣٦ م وعنوانه بالكامل :

M. Reinaud, Invasions Des Sarrazins En Farnce et de France en Savoie, en Pieront et dans La Suisse — Pendant les huitiéme, neuviéme et dixiéme siécles de notre ère, D'Aprés Les Auteurs Chrétiens et Musulmans .

وتقع ترجمة هذا الكتاب فيما أصدره شكيب أرسلان تحت عنوان : « تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط » من ص ١٦ — ٢٤٣ . وعلق على الترجمة ، وكان أمينا فى الترجمة والتعليق .

وذكر رينو فى كتابه أن اثنين من الكتاب سبقاه فى التعرض لهذا الموضوع ، هما :

1 — M. B..... N. C, F. ?, Précis Historiques des guerres des Sarrazins dans les Gaules (Paris. 1810)

2 — Desmichels M., L'Histoire Générale du Moyen Age, T. II (Paris, 1831)

ومما يدل على أمانة رينو العلمية ، أنه اعترف بمبالغات الرهبان

المؤرخين المعاصرين لتلك الحوادث ، فهو يقول إنه ينقل ما سجلوه على علاته ، وإن لم يبرئه هذا من التعصب الذى وضح فى بعض صفحات كتابه.

الثانى — للمستشرق الألمانى فرديناند كار ، نشره فى زيورخ فى عام ١٨٥٦ م . وعنوانه :

Dr. Ferdinand Keller, Der Einfall der Sarazenenen in Die Schweiz um die Mitte des x yahremderts.

ومعناه : « غارة العرب على سويسرا فى أواسط القرن العاشر » . وتقع ترجمة هذا الكتاب فى كتاب شكيب أرسلان من ص ٢٤٤ - ٢٧٥ .

وقد نقل كار ، كما فعل سابقه رينو ، عن الرهبان المؤرخين المعاصرين وقرأ ما كتبه رينو ، وناقش بعض آرائه .

وكان شكيب أرسلان قد ترجم هذا الكتاب ونشره ملخصاً فى مجلة المنار بمصر عام ١٩١٩ م ، ثم أعاد نقله بكامله فى كتابه ، ولم يختصر منه إلا ما رآه غير هام ، كما فعل فى ترجمة كتاب رينو .

وورد فى كتاب رينو وكار ، عدد كبير من المراجع المعاصرة وغيرها من التى تعرضت لنشاط المسلمين فى تلك البقاع ، وأنقل هنا بعضاً منها:

فمن كتبوا عن تاريخ بروفانس ، وفصلوا فى أحداث الغزو الإسلامى ، فى الكتب التى أصدروها : Papon ، Bouche

— وعن برجنديا : Von Gingins

— وعن نيم Menard : Nimes

— وعن De Guyse : Hainut

— وعن منطقة الألب العليا : La doucette

— وعن لانجدوك : Don Vaissette

— وعن مقاطعة الفار : Le Var : Denys

— كذلك أشارت ، إلى هذه الغزوات ، بمجموعة مؤرخى فرنسا :

Reeueil des Historiens de France

— وكتاب غاله المسيحية Gallia Christiana

ومن المؤرخين الإيطاليين ، فيما أصدروه من كتب وبحوث :

Bonino - Debene - Dellachiesa - Durandi - Monbrizio - Sigeberto.

وفى مجموعة التاريخ الجرمانى : Monumenta Germanica Historica

وما كتبه هوبى Hûbi فى القاموس التاريخى لسويسرا :

Dictionnaire Historique et Biographique de la Suisse .

وفى كتاب تاريخ دير سانت جـــالى ، الذى أصدره الراهب المؤرخ إكهارت Eckehard

وكتاب مقاطعة سانت جالن لمؤلفه : Von Arx

وما كتبه المؤرخ الألمانى Luitprand المتوفى عام ٩٧٠ م ، ونقـــد العالم الأثرى الإيطالى لودفيكو أنطونيو موراتورى Muratori المتو عام ١٧٥٠ م ؛ وذلك فى المجموعة التى نسبت إليه .

وكذلك ما كتبه المؤرخ الألمانى شبريخر Sprecher

ومن كتب التراجم :

Gerhardi. Vita S. Qudalrici

ومجموعة حياة القديسين المنسوبة لمصنفها الراهب اليسوعى بالاند Baland ، وقد مات دون أن يكملها ، وأكملها غيره ، وعنوانها :

Recueil Des Balandistes

ومجموعة الراهب البندكتى المؤرخ مارتن المشهو باسم « دون بوكى » Don Boquet . وهو من مواليد مدينة أميان Amiens بفرنسا ، وتوفى عام ١٧٥٤ م . وهكذا . . . . .